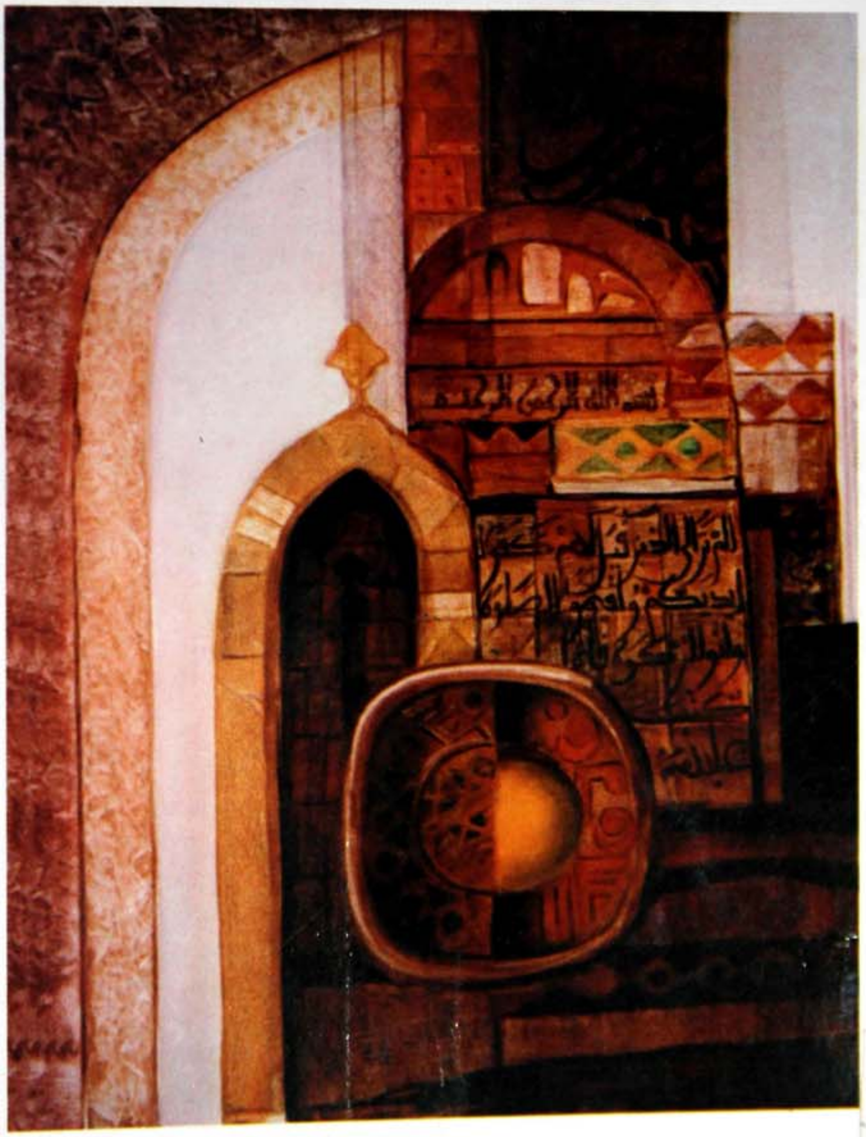
خليل عبد الكريم

إلا.. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب



مؤسسة الانتشار العربي

خليل عبد الكريم

إلا أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

إلا أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب

خليل عبد الكريم

مؤسسة الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: ٦٥٩١٤٨٠-٩٦١١ فاكس: ٦٥٩١٥٠-٩٦١١

ISBN 9953-476-51-9

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

الفهرس

تقديم

مات خليل عبدالكريم قبل أن يقتلوه!

ذلك المارد الذي تجاوز السبعين من العمر رحل بصمت وهدوء فخلف وراءه ما يزيد عن عشرة مؤلفات من بين أخطر وأهم ما كتب في التراث الإسلامي إلى اليوم.

كان خليل عبد الكريم متقدماً في تفكيره وآرائه عن أقرانه من الأزهريين وتمكن بفضل ضلوعه الكبير في دراسة التاريخ الإسلامي أن يواجه تيارات عاصفة هاجمته وأساءت إليه وطعنت مؤلفاته وطالبت بتكفيره بلا هوادة وهو ابن المؤسسة ذاتها التي كانت تطارده حتى النفس الأخير!

صدر آخر كتاب للشيخ خليل وكان يعاني من المرض الذي اشتد مما زاد في مأساته فأساءه أنه لم يكن يملك القوة على المواجهة فقد حاصره المرض كما حاصره من كان يصر على تسميتهم «الإسلامويون» أي «مدّعي الإسلامية» حيث قال في أحد تصريحاته: «إن أغلب «الرموز» التي نراها الآن على الساحة الإسلامية هم طلاب دنيا بل هم يتكالبون عليها بأشد ما يتكالب عليها منْ لا يرفعون الشعارات «إياها» أقول هذا من واقع خبرة

ومعايشة، معظمهم مليونيرات بلا أي مبالغة ويعيشون عيشة مترفة فيلات فاخرة أو على الأقل شقق واسعة وسيارات فارهة وأرصدة في البنوك».

مات الشيخ خليل ولم يتمكن خصومه ولا سيما أولئك العاملون في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف، لم يتمكنوا من النيل منه رغم تهديداتهم المتتالية بتكفيره وإباحة دمه، ورغم مطارداتهم المتواصلة لأعماله والتي توّجها بكتابة الأخير «النص المؤسس» والذي كان فعلاً آخر ما كان يرغب أن يقوله بعد أن أفرغ ما في قلبه وعقله وضميره في كتبه العشرة التي سبقته.

لقد مات خليل عبد الكريم وهو في حسرة أنه لم يتح له أن يرى بأم عينه رواج مؤلفاته في بلده مصر الذي لم يكن يخفي حبه وعصبيته «لمصريته» المتمادية بينما كانت هذه المؤلفات نفسها تنتشر في طول البلاد وعرضها وكان عندما يصدر كل كتاب ويتعرض للتشهير والنقد الديني اللاذع يصمد في وجه التيار ويقول بيني وبينهم كتاب الله والأسانيد وكل ما آتي به هو من كتب من كان يسميهم «المبجلين والمعظمين» وأتحداهم أن يواجهوني بجملة واحدة غير مسندة!

لقد كان خليل عبد الكريم أزهريا ونشط لفترة طويلة مع الإخوان المسلمين في مصر وتعرض للاعتقال مرتين ثم بدأت تتبلور أفكاره ودراساته المعمقة في التراث الديني بقناعات جديدة أخذ يبلورها تباعاً كتاباً بعد آخر، وكانت كل هذه الكتب قد نشرتها مؤسستنا «الانتشار العربي» ما عدا الكتابين الأخيرين اللذين

اعتذرنا عن نشرهما، لأنهما يلامسان محظورات إسلامية لم نكن نرى أن «الحالة الإسلامية» العامة تسمح بنشرهما ولكن شيخنا الجليل كان مستعجلاً على النشر ولعله كان يدرك ولم يخف ذلك مرة، أن الوقت لا يعمل لصالحه وأنه يريد أن يبلّغ الرسالة قبل فوات الأوان.

وهكذا كان، فات الأوان، ولم يتمكن معارضو الشيخ من النيل منه وقد رحل الآن آمناً ومطمئناً لا يخشى الترهيب ولا الوعيد ولا لومة لائم تاركاً وراءه إرثاً واسعاً وغنياً من الأفكار الجريئة والمواقف المثيرة للجدل.

أبرز ما تميزت به مواقف خليل عبد الكريم هي اسقاط هالات القداسة عن المجتمع العربي قبل وأثناء الدعوة الإسلامية بحيث يتمكن الباحث في التاريخ الإسلامي من تقويم هذا المجتمع باعتباره مجتمعاً انسانيا تسري عليه القوانين التي تسري على المجتمعات الإنسانية في الماضي والحاضر. وهو مجتمع لا عصمة له ولا قداسة فيه ويقول خليل عبد الكريم إن «هذا الفهم لا يعارض النصوص الصحيحة من القرآن، وثمة وقائع عديدة كان النبي يؤكد بشريتها دون جدال ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾[1] فإن كان هذا هو شأن النبي فما بالك بأصحابه؟

ويهدف الشيخ خليل من خلال كل المناقشات التي يعرضها في كتبه إلى التأكيد على «تاريخية النصوص» بمعنى أنها نزلت لتلائم

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

شروط مجتمع بعينه ولذلك «إن معرفة الأعراف والتقاليد والعادات والأنظمة التي كانت متجذرة في أعماق الحقبة المتقدمة على الإسلام ضرورية للغاية لتفسير النصوص المتعلقة بالأصنام ولفهمها الفهم الأمثل»!

وهذا بالفعل، ما قام به في كل مؤلفاته التي أصبحت تشكل في مجموعها موسوعة متكاملة تبدأ مع «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية» إلى «مجتمع يثرب» ثم قريش من القبيلة إلى الدولة، مروراً بسيرة الصحابة ودراسات معمقة في سيرة الرسول وفي تفسير الآيات القرآنية من منطلقات ثورية غير تقليدية تجافي المألوف والمتوارث عبر السنين وتطرح الكثير من التساؤلات.

لقد أصبح الشيخ خليل عبد الكريم ملكاً للأمة وفي ذمة التاريخ وإذا لم يتمكن الباحثون في هذا العصر من إنصافه أو على الأقل مناقشة أفكاره بدلاً من رفضها بالمطلق فإن جيلاً آخر، في زمان آخر لا بد أنه سينصف الرجل تماماً كما حصل ويحصل دائماً مع العديد من المفكرين السابقين لعصرهم والذين تجاوزوا بأفكارهم حدود المألوف والسائد.

غاب خليل عبد الكريم بصمت مشبوه وكان في كل كتاباته يستفز الباحثين والمؤلفين، وخصوصاً من كان يسميهم «جوقة التطبيل والتزمير» ولم يكن أحد قادراً على حواره أو مناقشته بالعلن فالتوافق معه يجر إلى التكفير والخلاف معه يؤدي إلى الخيبة.

لقد وجد الشيخ خليل في «الكشكول» ضالته وكان حريصا على متابعتها والكتابة فيها بعد أن تخلى عنه الجميع ويرى على صفحاتها منبراً يستطيع أن يفيض منه بعلمه الراسخ ومداركه الواسعة ولا شك أن القراء سيفتقدون، كما نحن، كاتباً فذاً وباحثاً نادراً ونسأل الله أن يتغمده برحمته الواسعة وأن يلهمنا جميعاً بعلمه.

الناشر

عبد الغني مروة

هذا هو الشيخ خليل عبد الكريم

- مصري.
- من مواليد مدينة أسوان في ١٩٣٠/٦/٣م.
- حاصل على ليسانس الحقوق والشريعة الإسلامية من جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) في مايو/أيار ١٩٥١م.
- احترف المحاماة منذ فبراير/شباط ١٩٥٢م حتى وفاته.

بدأ الشيخ خليل عبد الكريم نشاطه الاجتماعي كعضو ناشط مع جماعة الإخوان المسلمين بأسوان وعمل بعد تخرجه في الحقوق في مكتب اثنين من قادتهم هما عبد القادر عودة وإبراهيم الطيب. وشارك الإخوان تجربتي الاعتقال في سنتي ١٩٥٤ و١٩٦٥ قبل أن يتجه إلى اليسار ويشارك في تأسيس حزب التجمع.

وقد شرح الشيخ هذه الظاهرة في حياته في حديث أدلى به إلى مجلة آخر ساعة قال فيه:

أنا من أسرة شديدة التدين ثم يبدأ - في الحوار ذاته - سرد الأسباب التي جعلت صورة الإخوان تنهار داخله خاصة بعد اصطدامهم بالثورة واعتقال رموزهم «أودعت السجن الحربي وهناك لقيت ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر من أنواع

التعذيب، لدرجة وقتها (في غمرة صنوف التعذيب) كنت لا أتصور أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبني، لأنه (جل جلاله) أرحم من أن يجمعني بعذاب السجن الحربي وعذاب جهنم!! وتم في غمرة هذه الأحداث إعدام أساتذتي الشهيدين عبد القادر عودة، وإبراهيم الطيب وهو بالنسبة لي عام الحزن (عام ١٩٥٤)!

وفي عام ٦٥ اعتقلت مرة أخرى وأودعت في سجن (مزرعة ليمان طرة) ورغم أنه كان سجناً بلا تعذيب، إلا أنه كان خانقاً وفي منتهى القذارة، وأكله في منتهى السوء».

يضيف: «وحدث أن مرضت في السجن عام ٦٥ فأرسلوني إلى «الشفخانة» وهناك رأيت المستشار الرسمي مأمون الهضيبي - المتحدث الرسمي باسم الإخوان المسلمين الذي يتردد بين الإخوان أنه ابن المرشد العام «الثاني» المستشار حسن الهضيبي، وأنه لم يكن إخوانياً..

لقد تعرفت خلال هذه السنوات على «الإخوان» عن قرب، خاصة خلال عملي كمحام في مكتب الشهيد عبد القادر عودة، عندما كان يأتي هناك معظم أعضاء «مكتب الإرشاد» الذي يرأسه الإخوان، وكبار أعضاء الهيئة التأسيسية، وكان بعضهم يعجبني مثل المرحوم الشهيد الشيخ فرغلي، والشيخ المهندس السيد فايز الذي دبر حادث اغتياله منافسوه من الإخوان في التنظيم السري، واغتالوه بطريقة تتنافى مع أبسط قواعد الإسلام، إذ أرسلوا له في منزله (علبة حلاوة المولد) في مناسبة المولد النبوي الشريف، ووضعوا له قنبلة بين هذه الحلوى، وعندما قام بفتحها انفجرت

القنبلة في وجهه فأردته قتيلاً وأصابت كل أفراد أسرته المتواجدين في مكان الحادث بشقته»!.

لم أجد فيمن اجتمعت بهم من كبار الإخوان من يضاهي الشيخ حسن البنا في شخصيته الآسرة، ولا من يسامي أستاذي الشهيد عبد القادر عودة في علمه وموسوعيته، وللأمانة فإن شخصيات هؤلاء لن تعوض.. لماذا؟! لإخلاصهم وتفانيهم لدعوتهم، بعكس الأجيال الحالية من الإخوان، أو «للدقة» الكثير منهم يأخذ المسألة من باب الارتزاق.. بل والإثراء»!!

مؤلفات الشيخ خليل عبد الكريم
الصادرة عن مؤسسة الانتشار العربي

- الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.
- مجتمع يثرب.
- شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ٣/١.
  - محمد والصحابة
  - الصحابة والصحابة
  - الصحابة والمجتمع
- العرب والمرأة.
- قريش من القبيلة إلى الدولة.
- دولة يثرب.
- الفن القصصي في القرآن الكريم (شرح وتعليق).

كتب أخرى للمؤلف

- النص المؤسس٢/١ - دار مصر المحروسة.
- فترة التكوين في حياة الصادق الأمين - دار ميريت.
- موقف الإسلام من العمل والعمال لتطبيق الشريعة.. لا للحكم.
- مفاهيم خاطئة ألصقوها بالإسلام.
- الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية.
- الأسس الفكرية لليسار الإسلامي.

ما هو سر العداء نحو «الطالبيين» في القديم والحديث؟

كتاب جديد عن السيرة النبوية ينفي «حماية» أبي طالب لابن أخيه الرسول

والملاحظة الأولى: إن دمج سيرتي ابن إسحاق وابن هشام - في نظرنا - خطأ منهجي، لأن الأولى حسبما اطّلعنا عليها في الطبعتين اللتين حقق أولاهما د.سهيل زكّار وصدرت طبعته الأولى سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م عن دار الفكر/لبنان، وآخرها والتي نشرها القطاع الثقافي بدار أخبار اليوم بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوي طه بدوي تختلف عن الأخرى، أي سيرة ابن هشام.

حقيقة أن ابن هشام اعتمد كلية على ابن إسحاق ولكنه (ابن هشام) ذكر صراحة أنه ترك أشياء «بعضها يشنع الحديث به وبعضه يسوء الناس ذكره»(١). والذي يقصده ابن هشام بذلك أموراً تفصيلية عن حياة (أبي القاسم) الخاصة مثل قصة زواجه من زينب بنت جحش(٢).

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، ت٢١٣هـ، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، الجزء الأول، ص٧، طبعة ١٩٧٨م، المكتبة التوفيقية (سيدنا الحسين)، القاهرة.

(٢) السيرة النبوية، لابن إسحاق، الجزء الأول، ص٣٣٩، طبعة أخبار اليوم، وكذلك سيرة ابن إسحاق المسماة كتاب السير والمغازي، تأليف محمد بن إسحاق، ٨٥/ ١٥١هـ، تحقيق د. سهيل زكّار، ص٢٦٢، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، سلسلة مصادر التاريخ الإسلامي، دار الفكر.

قد يرى فيها البعض أنه يجمل إخفاؤها - وللعلم فقد استمر هذا المنحى حتى بلغ في أيامنا هذه إلى تخوم الخيانة العلمية.

أو قد يأتي الترك (من قبل ابن هشام) لأسباب سياسية مثل أشعار أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم منها: قصيدة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في رثاء أبيه[1]، أو إبراز موقف أبي طالب من (الصادق الأمين) واعتراف الأخير به جهاراً نهاراً[2].

فهذا يغضب الطواغيت الذين اغتصبوا الحكم من أصحاب الحق الشرعي فيه.

وأرجِّح أن هذا ما عناه ابن هشام بقوله إن من بين ما تركه أي حذفه من سيرة ابن إسحاق (أشعاراً ذكرها لم أرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها)[3].

أما الملاحظة الأخرى: فهي أن القرآن العظيم ليس كتاب تاريخ، حتى يحاكم المؤلف كتابيّ السيرة المحمدية العطرة على ضوئه لأن الآيات الكريمات التي جاءت به بخصوص الفترة المكية من الدعوة لم يقصد بها التاريخ إنما المعاني التي أمّتها (رمت إليها) هي التثبيت وتقوية القلب لـ(ذؤابة قريش: محمد) ولترسيخ الإيمان وتأسيس اليقين في صدور أتباعه.

---

(١) سيرة ابن إسحاق، طبعة أخبار اليوم، ص٢١٢، سابق. وسيرة ابن إسحاق د.سهيل زكّار، طبعة دار الفكر، ص٢٣٩، سابق.

(٢) ذات المصدر والجزء والصفحة.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، ت. السرجاني، ص٧، سابق.

وأحرى بالمؤلف وقد انطوى تقييم سيرتي ابن إسحاق/ابن هشام أن يبذل جهداً في التنقيب عن السير التي سبقتها مثل سير: عروة بن الزبير وأبّان بن عثمان بن عفان وابن شهاب الزهري وموسى بن عقبة فإن لم يجدها بأعيانها فيعكف على ما تناثر منها في السير اللاحقة وكتب التاريخ بل وحتى مصنّفات أسباب النزول (بالنسبة إلى القرآن) وأسباب الورود (بالنسبة إلى الحديث) ومؤلفات التفسير والطبقات والشمائل والمواهب..الخ.

بيد أنه آثر الطريق السهل والمحجّة المطروقة والسكة المرصوفة ومن هنا حفلت رسالته أو كتابه بالعديد من الأخطاء المعرفية والتاريخية والمعلوماتية مثل هذا الغلط الذي وزّنا (دفعنا) لتحرير هذا المقال.

ينفي الدكتور المؤلف أو المؤلف الدكتور حماية أبي طالب لـ(سيد الناس وديّان العرب)[١] من الصفحة الثانية والخمسين حتى الثالثة والستين، وهو ما لم يسبقه إليه أحد لا من السلف الصالح ولا من الخلف المبرور وهذا في حدّ ذاته لا يشكّل عيباً، فقد فعلناه في العديد من مؤلفاتنا، إنما الشرط الجوهري هو تقديم السند من المدوّنات المعتمدة ومن شواهد الحال ومن وقائع التاريخ الموثقة. أما الاتكاء على الفروض والاحتمالات والحدوث (التخمينات) مثل:

(فإذا افترضنا) ص٥٤ و(من السهل جداً أن نتصوّر) - ص٥٧ و(لا بدّ) - كررها مرتين في ص٥٧ (ولا بدّ) ص٥٨ - و(من المحتمل) ص٦٠ و(من غير المستبعد) ذات الصفحة و(فيما يبدو) ص٦١.

(١) سيرة رسول الله، د.محمود علي مراد، الطبعة الأولى ٢٠٠٠، دار الهلال بمصر.

فلا يجوز بأي صورة إيراده في رسالة علمية أكاديمية ولا حتى في أي بحث موضوعي (ولا غير أكاديمي). إن المطلوب تقديم البراهين العقلية والأدلة النقلية والحجج الواقعية. والذي رفضه المؤلف هو: القسم الذي حلفه أبو طالب لابن أخيه العظيم (ألا يخلص إليه شيء يكرهه ما بقي) ص٥٣ ثم أردفه بعلامة تعجب(!).

وبداهة أن هذا ورد في سيرة ابن اسحق/ابن هشام التي جعلها موضوع أطروحته ولم يبين لنا رقم الصفحة ولو أنه دلنا على الطبعة التي تعكّز عليها.

وقبل أن نفنّد توهينه لهذا الوعد وتشكيكه في القسم يتحتّم علينا أن نرفع الغطاء ونزيح الستار ونكشف الحجاب عن أخطاء معرفية لا يجوز لمثله - طالب دكتوراه - أن يتردى فيها، مما يوضح مستواه العلمي على حقيقته:

قال إن بني عبد المطلب (قبيلة) - ص٥٣ وإن بني هاشم (قبيلة) ص٥٤ وإنهما (قبيلتان) ذات الصفحة - وهذه تعبيرات غير دقيقة فبنو عبد المطلب فرع من بني هاشم والأخيرون هم بطن أو فخذ من قريش التي يصح وصفها بأنها قبيلة.

وقال: إن المسألة أثّرت عدة مرات في اجتماعات (مجلس المدينة) ص٦١ وفي ذياك الزمان لم يوجد في قرية القداسة (مجلس مدينة) بل فيها (دار الندوة) التي أنشأها الجد الأعلى قُصيّ والذي يتشاور فيها(ملأ قريش).

وذكر أن أبا لهب - تبت يداه - (...كان سيد قبيلتي عبد المطلب وبني هاشم إن لم يكن سيد قريش كلها) ص٦٠.

والثابت تاريخياً أن الملعون أبا لهب لم يتسيد على بني عبد المطلب فهو واحد من عشرة أبناء أنجبهم وليس أسنّهم وإن نسب إليه بعض الغنى.

إنما السيادة والشرف تركّزت في أبي طالب رغم عدم غناه حتى قيل إنه من القلّة النادرة التي تزعمت قومها رغم صفورها (خلوها) من النشب (المال) بل إن زعامة أبي طالب لم تقتصر على بني هاشم بل تعدّتها إلى قريش والدكتور المؤلف يبغي من وراء نزع هذه المكرمة تدعيم رأيه الفطير أنه (أبا طالب) ليس حامياً لـ(المزمل).

أ- (فإذا كان جعفر قد اضطر للهجرة إلى الحبشة فمعنى ذلك إذن أن أباه كان عاجزاً عن حمايته من قبيلته ذاتها) ص٦٢ ومفهوم الموافقة: أن أبا طالب بالتالي عاجز عن حماية (أبي القاسم) لو أن المؤلف قرأ السيرة المحمدية المعطار بعناية لأدرك انه ما من فخذ أو بطن في قريش إلاّ وجد فيه فرد أو اثنان أو أكثر هاجروا إلى الحبشة كما فعل الشهيد جعفر الطيار - نضر اللّه مثواه: - عثمان بن عفان من بني أمية بن عبد شمس - أبو حذيفة بن عتبة بن عبد شمس - الزبير بن العوام من بني أسد - مصعب بن عمير من بني عبد الدار - عبد الرحمن بن عوف من بني زهرة - أبو سلمة بن عبد الأسد من بني مخزوم - عثمان بن مظعون من بني جمح - أبو عبيدة بن الجراح من بني الحارث بن

فهر - طليب بن عمر من بني عبد قصيّ - وغيرهم كثير ومنهم من أخذ زوجته معه. فهل هؤلاء جميعاً عجزت عشائرهم وافخاذهم وابطنهم (لا قبائلهم) عن حمايتهم؟

ب- قال المؤلف إن النص الذي انضوى عليه القسم لم يحدّد الوقت الذي صدر فيه - ص٦٢ - وهذا يقطع أن بضاعته من الثقافة الإسلامية واشلة (قليلة) إذ إنه في تلك الفترة لم يعرف العرب التدوين لأنهم أمة أمية.

ولقد عجز أكابر المحققين والبحاث والمدققين عن معرفة تواريخ السور والآيات وأوقات بزوغها ومحلها[١]، فهل يغدو حسب مقياس المؤلف مدعاة للتشكيك فيها.

وهل يمكنه أن يدلّنا مشكوراً عن الوقت الذي ورد فيه أي حديث محمدي شريف؟

وهل سبقه أحد من الجهابذة سواء عندنا نحن أهل السُّنّة والجماعة أو عند اخوتنا أهل العصمة والعدالة أن ادعى بأن الجهل بوقت وروده (الحديث) علة قادحة تحول دون الأخذ به؟

ج- (إن أبا طالب لم يكن فيما يبدو رئيس بني عبد المطلب) ص٦١.

هذا ما زبره (كتبه) الدكتور المؤلف ولا ندري (فيما يبدو) لمن؟ له أم لحقائق التاريخ؟ أما عن البدو أو الخفاء بالنسبة إليه فنحن غير مسؤولين عنه وهو وشأنه.

(١) أكّده بصورة حاسمة وجازمة د.عبد الرحمن بدوي في كتابه دفاع عن القرآن.

ولكن عن الحقائق التاريخية الموثقة فإن أبا طالب في وقته ليس زعيماً وسيداً أو شيخاً (المؤلف قال: رئيساً.اهـ) لبني عبد المطلب أو بني هاشم فحسب بل لقريش بأسرها وإليك من الأدلة التي توثقه:

١- (وصان الله رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب - لأنه كان شريفاً في قومه مطاعاً فيهم نبيلاً بينهم، لا يتجاسرون على مفاجأته بشيء في أمر رسول الله ﷺ)[١].

٢- (كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء يتكئ عليها)[٢].

وهذه إحدى شارات السيادة في قريش وسبقه في هذه المكرمة أبو عبد المطلب الذي لا يُمارى في زعامته لقريش.

٣- (... ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: إن لك نسباً وشرفاً فينا)[٣]. ومن تقاليد العرب ألاّ يسيِّدوا عليهم إلاّ من يتمتع بنسب عريق وشرف منيف.

٤- (أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب

(١) إمتاع الأسماع، لتقي الدين المقريزي، ٨٤٥هـ، ص٤٣، الجزء الأول، تحقيق محمد عبد الحميد المنيسي، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الأنصار بالقاهرة.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، الجزء الأول، ص١٠١، الطبعة الأولى، رجب ١٣٥٨هـ، إصدار لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة.

(٣) السيرة النبوية، للحافظ المؤرخ الذهبي، ت٧٤٨هـ، تحقيق حسام الدين القدسي، ص٨٤، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

العيـال، فهلم فـاسـتسق، فـخـرج ومـعـه غـلام كـأنه شـمـس دجن)[١].

والقـبـائل في ذيّاك الـزمـان المـعـجـب (وتفـعله الشـعـوب في أيامنا هذه.اهـ) تفـزع في الملمات إلى زعيمها وتعوّذ في النائبات بسيدها وتلجأ في الأزمات إلى قائدها.

٥- حـاز أبو طالب لقب (شيخ البطحـاء)[٢] وهو لقب لا يحـوزه إلاّ من تسنّم ذروة السيادة فيهم.

وتحت يدنا مصـادر كثيـرة تؤكد مكانة أبي طالب السامية في قـبـيلة قـريش على بكرة أبيـهـا بيـد أننا نكتـفي بما قـدمناه كيـمـا لا يتفرشح المقال ويجور على حيِّز غيره.

د- وقال المؤلف الدكتور (محمدﷺ شـأنه في ذلك شأن جميع الأنبـيـاء كـان يعلم ولا شك أنه تحت حمـاية من هو أقـوى من عمّـه وقبيلته) يعني الله جلّ شأنه - ٦٢.

هذا الكلام الإنشائي موضعه خطبة منبرية يلقيها واعظ ريفي لا رسالة أكاديمية.

فـلا مشـاحـة أن (الهادي البشـيـر) يعلم ذلك يقيناً ولكن بفهمه العميق لصحيح الدين أدرك أن الأسبـاب الغيبية لا تغنـي عن اتخاذ الأسبـاب الدنيوية. فبعـد وفـاة أبي طالب ذهب إلى الطائف ليبشّـر

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للقسطلاني، ٨٥١-٩٢٣هـ، ص٨٠، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، دار الغد العربي بمصر.

(٢) خـاتم النبيين ٢٦، للشيـخ محمـد أبو زهـرة - المجلد الأول ص٤٣٨، الطبعـة الأولى د.ت.ن، دار الفكر العـربي بمصـر. وقبلهـا في ٤٢٤ وصفـه بـ(الرجل العظيم).

بدينه فيها ولكن طواغيتها أساؤوا الأدب معه وأغروا به سفهاءهم وعبدانهم وفي عودته منها إلى مكة لم يتمكن من دخولها إلاّ تحت مظلة جوار واحد من كبرائها (فأرسل إلى المطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجابه إلى ذلك وتسلّح هو وبنوه وتوجّهوا مع رسول الله إلى المطاف فقال له بعض المشركين: أمجير أنت أم تابع فقال: بل مجير قالوا: إذن لا تخفر ذمتك)[1].

ومن حقنا على الدكتور المؤلف أو المؤلف الدكتور أن نسأله:

لماذا دخل (سيد ولد عدنان) قرية القداسة (بكة) في جوار المطعم بن عدي وهو (كان يعلم أنه تحت حماية من هو أقوى من عمه وقبيلته)؟

ألا ترى أن فهمك للماورائيات في حاجة ماسة إلى تصحيح وأن هذه الحجّة داحضة.

هـ- وأخيراً ختم بمقالة لا تقل تهاتكاً (وإذا كانﷺ بحاجة إلى حماية بشرية فقد كان أمامه المسلمون...) ص٦٢.

إن عامة المسلمين قبل حامتهم (خاصتهم) يعرفون أن مسلمة ذياك الوقت مستضعفون مضطهدون معذبون والقرآن المجيد سجّل هذه الحقيقة في أكثر من آية.

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضري بك، ص٦٨، الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٧٨م، المكتبة التجارية الكبرى بمصر. ولا يكاد يخلو كتاب في السيرة المحمدية الزكية إن من التراث أو المعاصر إلا وتجد فيه هذه الحقيقة لتاريخه.

ومن التناقض البيّن أن المؤلف ذاته اعترف بها وخصّص لها فاصلة مستقلة من ص١٦١ حتى ص١٦٨ بعنوان (الاضطهاد).

فكيف يتسق مع بدائه العقول وأوليات المنطق أن المقهور المهان الذي لا حيلة له ولا قوة في مكنته أن يحمي سواه ويحرس غيره ويحوط من عداه.

أليس فاقد الشيء لا يعطيه!!!

وهكذا تنهار الواحدة إثر الأخرى الأدلة التي ساقها المؤلف لينفي حماية أبي طالب لـ(صاحب المقام المحمود) طول حياته (حياة أبي طالب).

ومن الغريب أن (سيد الثقلين) صرّح به جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد (ما زالت قريش كاعين - أي مانعين عني أذاهم - حتى مات أبو طالب)(١).

وسمى العام الذي توفي فيه عمّه الحامي وزوجته الوفية سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها (عام الحزن).

(هذه تسمية رسول اللهﷺ للعام الذي توفي فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبد المطلب وأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها)(٢).

ألا تنفع هذه التسمية التي تقطع بالتفجّع دلالة الاعتراف بالجميل المقترن بالأسى الدفين على فقد العم الذي قدّم كل عون وحماية وكذا الزوجة الحبيبة الوفية.

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق، الأول، ص٢١٢، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.
(٢) خاتم النبيين للشيخ محمد أبي زهرة، مرجع سابق، ص٤٣٨.

وبعد

فما أن قرأت هذه الفاصلة التي فنّدت ما جاءت به ساءلت نفسي: ما هو سر العداء أو الخصومة أو على الأقل الموقف غير المنصف نحو (الطالبيين) في القديم والحديث؟

الذي أرجحه أن جوهر السمو فيهم يستفز الآخرين - لا شعورياً - ويدفعهم لردود الأفعال هذه لأن أصحابها يوقنون في قرارة صدورهم أن من المستحيل عليهم الوصول إلى القلة (بضم القاف وهي الذروة أو السنام أو القمة) التي تفرّد بها الطالبيون.

الضلع الثالث في مؤامرة (وقعة الجمل) وموقفه من النسوان

من المعلوم أن التيمية بنت عتيق بن أبي قحافة هي الضلع الأول، أما الثاني فهو طلحة بن عبيدالله وثالثهم الزبير بن العوام.

ومن عجائب التاريخ أن هذا الثالوث غير المقدس دأب على التحريض على الخليفة الثالث الأموي عثمان بن عفان والتحريض على قتله، ونكتفي لضيق المجال بما أورده اليعقوبي في تاريخه:

(وعثمان محصور في داره وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة)[1].

وعندما تولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه منصب الإمامة العظمى بعد طول حرمان من حقه الشرعي فيها.

(بايع علياً طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وكان أول من بايعه وصفق على يده طلحة بن عبيدالله)[2].

ولدوافع خسيسة نكل طلحة والزبير عن هذه البيعة وانقلبا عدوين لدودين لأبي الحسنين - نوّر الله ضريحه - ولا نرى داعياً لرقمها لخروجها عن صلب المقال.

(١) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٧٥، د.ت.ن، دار صادر، بيروت.
(٢) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٨٧، سابق.

وقبل ذلك بسنوات وصف عمر بن الخطاب، الزبير بن العوام وصفاً يلقي ضوءاً على بواعث عدواته للإمام علي وعلى مواقفه من البعلات اللاتي أوقعهن سوء حظهن في عصمته، ومن المعروف أن العدوي الخليفة الثاني لا تخيب فراسته وتقييمه للرجال وخاصة مخالطيه:

(سأل ابن عباس عمر بن الخطاب عن الزبير فقال: ذاك يوم انسان ويوم شيطان)(١).

إن مما يُبين نبالة الرجل أو سُفُولته هو معاملته لنسوانه، أما الحبيب المصطفى فقد أطبق المحب والشانئ والنصير والمناوئ والمؤيد والمعارض على أنه ضرب المثل الأعلى في السلوك النموذجي مع زوجاته فلم يسبق له أن مدّ يده على إحداهن مهما تجاوزت حدّها وصبر على مؤامراتهن ووسع صدره الكريم لمشاحناتهن وأقصى ما عمله بعد أن طفح به الكيل أن اعتزلهن.

وتأسّى به ربيبه علي إذ تخبرنا كتب السيّر والتواريخ أنه دأب على معاملة سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد كملكة متوجة(٢).

---

(١) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٥٨، سابق.

(٢) هذا للتوضيح والتقريب فالسيدة فاطمة أسمى مقاماً من أي ملكة في زمانها، ونذكر هنا بيتي الشعر اللذين قالهما أبو تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً من المشكاة والنبراس

بيد أن ابن العوام تموضع في موقع مناوئ حيال زوجاته فقد طفق على القسوة عليهن وإدمان ضربهن بل وبلغ به الأمر إلى حد امتهان كرامتهن وآدميتهن في الطريق العام، ونبدأ بـ:

أسماء بنت عبدالله بن عثمان بن عامر أو أسماء بنت عتيق (أبي بكر):

في بدء الأمر كان الزبير مليطاً من المال وكل ما يملكه فرساً يتيماً، تولت زوجته بالاضافة إلى أعبائها المنزلية التي تقوم بها بمفردها، العناية له.

(وأعلفه وأسقيه الماء وأخرز غربه وأعجن ولم أكن أحسن الخبز وكان يخبز لي جارات من الأنصار وكنّ نسوة صدق)[1] وفصّل ابن الأثير الجزري الخدمات التي فرضها الزبير على بعلته إزاء فرسه: (قالت اسماء: تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه قالت فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته)[2].

و(قالت «أسماء»: وكنت أنقل النوى من الأرض التي أقطعه رسول الله، على رأسي وهي على ثلثي فرسخ فجئت يوماً والنوى على رأسي فلقيت رسول الله ومعه نفر من أصحابه فدعا لي ثم قال إخ إخ ليحلمني خلفه فاستحييت أن أسير مع رجال وذكرت الزبير وغيرته وكان من أغير الناس).

---

(١) حياة الصحابيات الجليلات، لحمزة النشرتي وآخرين، ص١٥٥، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، الناشر حمزة النشرتي بمصر.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ٥٥٥-٦٣٠هـ، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، المجلد السابع «كتاب النساء» ص٤٨١، طبعة كتاب الشعب، مصر.

ومن الطبيعي أن ذلك كان يؤودها ويشق عليها فلم تجد مفراً من أن تلوذ بأبيها ولكنه لم يسعفها وكل ما استطاع أن يقدمه اليها هو نشيج بكائه إذ لم يجرؤ على محادثة زوجها القاسي القلب ونذكر القارئ هنا بما نعته به العدوي ابن الخطاب.

و(جاء في دَرّ السحابة: مرّ أبو بكر بأسماء وهي تقود فرساً للزبير إلى الغابة تحتش عليه وقد حملت ابنها عبدالله فلما رأته استغاثت به فقالت أرسلني أحتش على فرسه ويحمحم الفرس فانسل فأخذني وضربني، فقال أبو بكر اتقي الله وأطيعي زوجك، مرتين حتى لما أدركته رقة الوالد حرك فرسه فولى واني لأسمع نشيج بكائه)[1] ولم يزد على أن قال لها: (يا بنية اصبري).

ولم يقدر الزبير هذا التفاني والاخلاص من جانب الزوجة البائسة التي تخلّى عن مناصرتها أبوها وهو أقرب الناس اليها، بل استمر في القسوة عليها والشدة في عشرتها وضربها ضرباً مبرحاً (عن عكرمة أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحت الزبير وكان شديداً عليها)[2].

هذا الزوج الذي (كان ليكادح على المَكِيْلَة من بكْرة إلى الظهر حتى تفوته الصلاة - قاله عمر في حق الزبير)[3].

بعد الغزو النهبوي الاستيطاني الذي مارسه هؤلاء العربان المستبدين على دول الجوار الباذخة في الحضارة مثل: مصر

(١) حياة الصحابيات الجليلات، ص١٥٥ مرجع سابق.
(٢) نفسه وذات الصفحة.
(٣) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٥٨، مصدر سابق.

وفـارس والعـراق والشـام أصـبح من ذوي الملايين يملك كل أنواع النشب: العقار والمنقول والصامت والناطق والساكن والمتحرك..الخ.

(حين توفي الزبير.. عام ٦٥٦م ترك وراءه ألفاً من العبيد وألفاً من الجواري)[١].

وبعد أن سئم مفاخذة الجواري من كل جنس ولون أخذ يبحث عن النسوة الحرائر اللاتي يتميزن بالجمال والحسن المقرون بالعجيزة المُكْتنزة فوجده في عاتكة بنت زيد بن عمرو العدوية التي سوف نسطر قصته معها في مقال لاحق.

المهم أن الزبير بعد أن تضلّع من المال وشربه نهلاً بل عللاً حتى لم يعد لديه متسع من مزيد رأى أن يتخلّص من أسماء جزاءً وفاقاً لإخلاصها معه عندما لم يكن يملك شروى نقير فزاد من جرعة القسوة وضاعف التوعّر في ضربها الأمر الذي أفزع أبناءها منه خاصة الأكبر فيهم وهو عبدالله وحضّهم على أن يتدخلوا ليحدّوا من طغيانه وهذا هو عين ما هدف إليه إذ اعتبره تعدّياً على حقه فطلقها وكان يتعين عليه وقد تملك الملايين أن يهيئ لها مسكناً يليق بتاريخها الرائع معه وبسنّها ومكانتها الاجتماعية ولكن أنّى لمثله أن يفعل فاضطرت إلى أن تعيش في منزل ابنها عبدالله.

---

(١) المرأة والجنوسة في الإسلام، الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة، تأليف ليلى أحمد، ترجمة منى إبراهيم وهالة كمال، ص٨٦، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، العدد ١١٧ من المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

ثم إن الزبير طلقها (أسماء) فكانت عند ابنها عبدالله.. قيل إن الزبير ضربها فصاحت بابنها عبدالله فأقبل إليها فلما رآه أبوه قال أمك طالق إن دخلت فقال عبدالله أتجعل أمي عرضة ليمينك؟ فدخل فخلصها منه فبانت منه)[١].

وهو ذات ما قدمه مرجع حديث.

(وطلق الزبير أسماء ويروى في سبب طلاقها روايات، قيل: إن عبدالله قال لأبيه إن مثلي لا توطأ أمه فطلقها الزبير، وقيل كانت قد أسنّت وولدت للزبير عبدالله وعروة والمنذر. وقيل إن الزبير ضربها فصاحت بابنها عبدالله فأقبل اليها فلما رآه أبوه قال: أمك طالق إن دخلت فدخل فخلصها منه فبانت معه وأقامت عند ابنها عبدالله بعد طلاقها من الزبير)[٢]. ونحن نرجِّح أنه لما أسنت أسماء ولم يعد لديها ما تقدمه للزبير الذي غدا مليونيراً بعد فقره المدقع تطلع لنكاح الحرائر الحسان ذوات المؤخرات المكورة فأكثر من وقذ أسماء (الوقذ الضرب الشديد) كمعبر للطلاق والبينونة فالتخلص من مؤنتها.

موقف الزبير من أسماء يكشف لنا عن قطاع من نفسيته وسوف نوالي - إن شاء الله - عرض موقفيه من زوجين أخريين يُكملان رفع الستار عن باقي جوانب هذه النفسية. ونترك للقارئ وحده معرفة الدوافع التي وزّته إلى نقض بيعته وصفقة يمينه مع الإمام علي بل وتحوله إلى عدو يشن الحرب عليه.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري، مصدر سابق.
(٢) حياة الصحابيات الجليلات، ص١٥٦، مرجع سابق.

خدعته مرة

ذكرنا عن الزبير بن العوام أنه اشتهر عن معظم الصحابة بقسوته على زوجاته وسوء معاملته العدوانية أسماء بنت أبي بكر حتى عمد أن طلقها واستمر في مسلكه غير اللائق فلم يدعها ويخصص لها داراً مستقلة ولم يجر عليها نفقة [illegible] كريم رغم ثرائه الفاحش الذي حصل عليه هو وغيره من الصحابة من ثروات المستعمرات التي دخلوها [illegible] واستذلوا شعوبها واستمتعوا بنسائها وغنائمها واستعبدوا شعبها رغماً عنها. وفرضوا لغتهم وثقافتهم عليها [illegible] ما قدمته له من تضحيات وخدمات عندما كان [illegible] زواجه منها إذ لا يملك سوى فرسه [illegible] قبول استضافة ابنها منه عبد الله.

أما الزوجة الثانية فقد ثارت [illegible] الزبير حيث استمر في ضربهن ومعاملتهن بغلظة وعلاقة كأنه يجد في ذلك تحقيقاً لذاته وتأكيداً لفحولته وإثباتاً لرجولته وبرهاناً على ذكوريته..الخ.

وجاء ثأرها منه ناقعاً كوياً ترك الزبير مضحكة للبادي والحاضر لسذاجته وقدّم البينة على غفلته وطرح الحجة على هبله ونفخ السند على بلاهته وأصبح الناس يتندرون عليه ويتهامسون في مجالسهم ويتحدثون في نواديهم ويتسامرون في بيوتهم.

كيف استطاعت احدى حريم الزبير أن تخدعه وبأي طريقة تمكنت من الضحك عليه وبأي أسلوب توصلت إلى إدخال الغفلة عليه بمنتهى البساطة وغاية السهولة وكل اليسر

إنما الذي لا مشاحة فيه أنه مهما بلغت حنكة المرة وارتفع ذكاؤها واتسعت حيلتها فمن المستحيل أن تجوز على الزبير لعبتها لولا أن لديه استعداداً نفسياً وتقبلاً ذهنياً وشعوراً فطرياً للانخداع وبلع الطعم والوقوع في الأُحبولة.

إذ إن علم النفس يخبرنا عن أشخاص لديهم القابلية لتلقي الختل ومرده أو مرجعه قصور في الملكات العقلية وضيق في الأفق وضحالة في الإدراك.

من هي تلك الزوجة؟

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط تزوجها زيد بن حارثة ثم خلف عليها الزبير بن العوام فحملت، وكان الزبير شديداً على النساء فأقام عندها سبعة أيام فولدت له ابنة وقالت له حين ضربها المخاض: طيّب نفسي بتطليقة، فطلقها وخرج إلى الصلاة، فلحقه رجل فقال: ولدت أم كلثوم، فقال: خدعتني خدعها الله.

ولم يكن له عليها رجعة وخطبها فأبت أن تزوجه ويقال: أتى النبي فأخبره فقال: قد مضى فيه القرآن، ولكن إن شئت خطبتها إلى نفسها قال: لا ترجع إليّ أبداً(١).

(١) كتاب المردفات من قريش لأبي الحسن بن محمد المدائني، ١٣٥/٢٢٥هـ، ص٦٧، ضمن كتاب نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، تقديم محمد زغلول سلام، العدد ٧٠ من سلسلة «الذخائر»، طبعة ٢٠٠١م، من إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

أم كلثوم هذه تمتّ بصلة قرابة حميمة إلى عثمان بن عفان، إذ إنه عندما طعن العدوي عمر بن الخطاب وعيّن ستة لاختيار أحدهم خليفة، كان هو «عثمان» من بينهم، فحذره قائلاً: أراك لو وليتها لحملت آل أبي معيط على رقاب المسلمين، ومن المؤسف أنه لم يفعله بالنسبة إليهم فقط بل حمل بني أمية جميعهم على رقاب كل المحكومين.

وهذا لا يهم بقدر ما نذكر أن لها شخصية ذات حضور قوي وشكيمة حديدية فبعد إمضاء صلح الحديبية تركت مكة بمفردها وسافرت إلى يثرب لتلحق بـ«الحبيب المصطفى عليه وآله السلام» وسائر المسلمين هناك، فتبعها إخوان لها طلبا إعادتها لقرية التقديس نفاذاً للشروط وهنا أشرقت آية قرآنية كريمة نقضت العهد بالنسبة إلى النسوان بمعنى أن المرة التي تغادر بكة وتلجأ للمسلمين لا ترد بخلاف الرجل.

ذكر ابن حجر العسقلاني أن أم كلثوم بنت عقبة... أول من هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي ولا نعلم قرشية خرجت من أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم.

ثم قصّ حكاية خروج أخويها لردها طبقاً لشروط صلح الحديبية وأضاف: فنقض الله العهد في النساء(١).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، الجزء السابع، ص٨٤٩، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبعة ٢٠٠١م، دار الغد العربي، القاهرة.

ما إن وصلت أم كلثوم إلى قرية الحرتين (يثرب) حتى حجل إليها الزبير فهي قرشية وشابة، فاما أن زوجته الأولى أسماء قد طعنت في السن ولم يعد لديها ما يرضيه ويمتع مذاكيره أو حدث بعد طلاقه إياها.

لم يضع في تقديره أن أم كلثوم من رهط أرفع شأناً من أرومته وأنها ذات شخصية قوية حتى أنها خالفت أسرتها ونزحت إلى يثرب وفي عملها ذاك الذي اتسم بالجرأة والشجاعة تلالأت كالبدر المنير آية شريفة قننت قاعدة آمرة ناصرت النساء (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.. هاجرت إلى رسول الله عام الحديبية، فجاء أخواها إلى رسول الله يطلبانها فأبى أن يردها عليهما... وقال المفسرون فيها نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءك المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن﴾(١))(٢).

لم يفعل الضلع الثالث شيئاً من ذلك بل طفق يعاملها بقسوة وينزل عليها ضروباً من الشدة والشراسة فكتمته في نفسها الأبيّة، ولما حملت منه أخفته ولم تبده له ولما قرب موعد ولادتها طلبت منه أن يطلقها ولا عليه منشئ إذ في مقدوره أن يردها إلى عصمته في أي وقت قبل انقضاء عدتها فأجابها اليه وهو يردد بينه وبين نفسه: ما أعبطها فما أيسر أن أعيدها.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري، المجلد السابع، كتاب النساء، ص٣٨٦، تحقيق وتعليق محمد أحمد البنا ومحمد أحمد عاشور، د.ت.ن كتاب الشعب بمصر.

وما أن ولدت حتى بانت منه فلا يستطيع ردها إلا برغبة أو موافقة منها لأن ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[١].

أسقط في يد الضلع الثالث: الزبير بن العوام ولم يدر ماذا يفعل ولم يجد أمامه سبيلاً إلا أن يلجأ لـ«سيد خلق الله» عليه وآله أزكى السلام فأجابه أن حالتها هذه فيها نص قرآني حاسم - وهو الذي أشرنا إليه منذ قليل - لكن «الرحمة المهداة» عليه وآله أفضل السلام لما رأى حالته النفسية وأن أم كلثوم أوقعته في ورطة وجعلته حديث الناس عرض عليه أن يتوسط له لديها ولكنه (الزبير) عزت عليه نفسه لأنه حاول بيد أنها رفضت بحسم وهي محقة إذ ما الذي يدعوها لأن تؤوب إلى جحيم معاشرته فهو كما خبرته لا يرفع يده عن النسوان:

تزوجت أم كلثوم آخر الأمر زيداً ابن محمد بالتبني وحين توفي زيد في إحدى المعارك عام ٦٢٩م تزوجت بمسلم آخر هو الزبير بن العوام الذي كان يعاملها بقسوة شديدة وعلى الرغم من أنه رفض تطليقها إلا أنها نجحت في التحايل عليه لينطق بالكلمات اللازمة لإعلان الطلاق، وحين أنجبت أم كلثوم اشتكى الزبير إلى محمد بأنها قد حصلت على الطلاق بالحيلة ولكن من دون أن تحقق شكواه أي نتيجة[٢].

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٦٥.

(٢) المرأة والجنوسة في الإسلام، الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة تأليف ليلى أحمد ترجمة منى إبراهيم وهالة كمال، ص٨٦، العدد ١١٧ من المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ١٩٩م، نشر: المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

هذا هو الزبير بن العوام الذي ساهم بهمة في تجييش الكتائب لمحاربة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الخليفة الشرعي بعد أن أعطاه طائعاً مختاراً صفقة يمينه!!!

ولم يسأل نفسه واحد من الطبالين والزمارين سواء من القدامى أو المحدثين من الذين كتبوا سيرة هذا الزبير:

كيف يصلح لتولي الإمامة العظمى على المسلمين وقد خدعته مَرَة؟

عجيزة مرة تدفعه لموقف صبياني

العربان الجفاة - الذين أصبحوا في غفلة من الزمان سادة وحكاماً لدول الجوار ذات الحضارات العريقة الباذخة مثل مصر والشام والعراق وفارس، مقاييسهم في جمال المرة حسية بحت فهم يفضلونها جزلة، لحيمة، جسيمة فضفاضة..الخ.

فإذا امتازت بأرداف ثقيلة وأوراك غليظة ملفوفة وسيقان خدلجة فيصيبهم الهوس وينتابهم الهبل ويعتريهم الخبل، أما إذا ضمت قسطاً من الملاحة وشطراً من الحسن وبعضاً من الجمال فيركبهم مس من الجنون ويرقلون «يسرعون» إلى دارها يقفون صفاً على أعتابها كيما يفوز بها أحدهم حتى إذا قضى شهوته منها - وهذا ما يهمهم في المقام الأول - وطلقها أو مات عنها وضع أخوه أو ابن عمه أو جاره أو صديقه ذيل جلبابه بين أسنانه وحجل إليها ولزم مدخل خبائها أو خيمتها أو بيتها ذليلاً خاشعاً موافقاً مسبقاً على كل شروطها لأن همه الاستمتاع بالعجيزة المكورة والأفخاذ الريانة

والسوق المليئة تلك النوعية من النساء استهلك كثير منهم خمسة أزواج وهو رقم قياسي لا تنافسهم فيه أمة أخرى ومن حق أولئك الأعاريب المتبدين أن يفاخروا به ويضيفوه إلى سجلهم المشرف الذي يحتوي على العديد من هذه الأمجاد.

من هاتيك النسوة:

العدوية (عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل.. كانت عند عبدالله بن أبي بكر بن أبي قحافة ومات شهيداً في حصار الطائف.. فتزوجها عمر بن الخطاب فلما قتل عمر خطبها طلحة ابن عبيدالله فمشى في أمرها هبّار بن الأسود فأفسد عليه فتزوجها الزبير بن العوام)(١).

وبعده (تزوجها محمد بن أبي بكر فخرجت معه إلى مصر فقتل ومثل به.. فتزوجها عمرو بن العاص)(٢). وهذا العمرو له يد طولى في قتل محمد بن أبي بكر والتمثيل بجثته بيد أن العربة - رجالاً ونساءً - لا يعرفون فضيلة الوفاء والإخلاص بل يتصفون بالخساسة والجبانة ودليله أن العاتكة العدوية أو العدوية العاتكة لم تر أي بأس في الزواج بالسفاح الذي ساهم في نحر حليلها السابق ولا مشاحة أن النكاح المنحوس تم في اليوم التالي مباشرة لانقضاء عدتها.

---

(١) كتاب المردفات من قريش لأبي الحسن علي بن محمد المديني، ٢٢٥-١٣٥٠هـ من كتاب نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون تقديم أ.د.محمد زغلول سلام، ص٧١، سلسلة الذخائر ٧٠، طبعة ٢٠٠١م، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

(٢) ذات المصدر والصفحة.

وما لنا نلومها على فعلتها فابن عمها وأحد بعولها العدوي ابن الخطاب اقترح على التيمي عتيق الخليفة الأول حرق بيت فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين لأن شيعة الإمام علي اتخذوه مقراً لاجتماعاتهم ولم تمض على وفاة الحبيب المصطفى شهور معدودة لولا أن ابن أبي قحافة خشي العاقبة وقدر أنه سوف يؤدي إلى أن تنزع منه الخلافة التي نتشها من صاحب الحق الشرعي فيها علي بن أبي طالب والتي وصفها العدوي عمر وزيره الأول بأنها فلتة..الخ.

ثم نعود إلى سياق القول:

ما الذي دعاهم إلى التسابق على وطء عاتكة

ونلاحظ أن بينهم أخوان وفيهم الشاب والشيخ ومنهم «البين بين»:

إن العلة لا تخفى على فطانة القارئ فهي:

(كانت امرأة خليفة)(١)

وخليفة أي برهرة، رداح، سمينة.

(وكانت عظيمة العجيزة جميلة)(٢)

(وكانت حسناء جميلة)(٣)

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق محمد علي البجاوي، الرابع: النساء وكناهن، ص١٨٧٩، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت - لبنان.

(٢) المردفات من قريش، ص٦٨-٧١، سابق.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ٥٥٥/ ٦٣٠هـ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، المجلد السابع النساء ص١٨٥، طبعة كتاب الشعب، مصر.

إذن اجتمعت فيها الصفات الحسية التي تطير عقل العربان البداة الذين لا يجدون سوى التماس بالمرأة مجالاً يفرغون فيه نشاطهم المحموم ومن ثمة جرى صوبها خمسة رجال من مختلف الأعمار والمشارب والنوازع فأتت عليهم جميعاً.

من بين من وقعوا أسرى ذات الحقيبة الممتلئة: الضلع الثالث الزبير بن العوام ورفع الراية البيضاء ورضي بكل القيود التي فرضتها عليه متناسياً أنه كان يستأسد على أسماء بنت أبي بكر صاحبة الفضل عليه ويتغالس على أم كلثوم سليلة بيت أبي معيط.

ولكن ما سر الاستكانة والاستخذاء والاستسلام من الزبير؟

إن الإجابة لا تحتاج إلى ذكاء أو تفتقر إلى فطنة أو تعوز إلى لوْذعيّة؟

كيما يستمتع بالمرة... الريحْلة (السمينة) العجزاء الجزلاء (حقيبتها ثقيلة وأردافها نافجة أي مرتفعة) ذات الأفخاذ الربلة (الضخمة) والأوراك اللفاء والسيقان المستديرة المليئة الريانة التي تخرس الحجول (الخلاخيل) والأثداء النائرة الحجامة المرتفعة(١).

بيد أن عاتكة اتسمت بالحنكة واتصفت بالدرية وامتازت بالحصافة فاشترطت عليه أمرين:

- أن يكف يده عنها ولا يمدها عليها أي إن ضربها ممنوع عليه البتة.

---

(١) رجعنا في أوصاف المرة التي يفضلها الأعراب الأجلاف إلى كتاب العرب والمرأة لخليل عبد الكريم الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا بمصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان.

- إن من حقها أن تصلي في المسجد المحمدي الشريف.

فأذعن على الفور لا على التراخي كيما يفوز بالكنوز الجسدية التي يتحلب لها ريق الأعاريب الأجلاف بل يسيل لها لعابهم بكثرة وهي أحلى أمانيهم وهمهم المقيم وحلمهم في اليقظة قبل المنام.

إنما نفض عليه سعادته وأفسد عليه متعته وكدّر لذته الشرط الآخر فعندما تخرج لأداء المكتوبات في المسجد سوف يشاركه غيره في النظر إلى الأثداء المكعبة المستفلكة والأكفال الرواجح والأفخاذ اللحيمة الثئدة والسيقان المدملكة.

وهو شديد الغيرة كباقي أقرانه وعلى شاكلة أنداده ومثل سائر رجال الجزيرة المقدسة الشديدة البركة فماذا يفعل كيما يمنعها من أداء الفروض جماعة بالمسجد؟

هداه تفكيره الذي وصفناه في المقالة الوسطى إلى حل نترك السلف الصالح يحدثونا عنه ونرجئ التعليق عليه.

(فتزوجها الزبير بن العوام، فنهاها عن الخروج إلى المسجد فقالت أتنهاني عن الخروج إلى المسجد وقد قال ﷺ: لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله - فأعرض عن ذلك أياماً ثم قعد في طريقها ليلاً فلما مرت به ضربها على عجيزتها بيده - وكانت عظيمة العجيزة جميلة فرجعت إلى بيتها واسترجعت وقالت: سوأة، انا لله وتركت الخروج فقال لها الزبير ما لك تركت الصلاة في المسجد قالت: قد فسد الناس أبا عبدالله فقتل عنها)(١).

(١) المردفات من قريش ص٦٨، مصدر سابق.

(إن عمر لما خطبها «عاتكة بنت زيد» شرطت عليه ألا يضربها ولا يمنعها من الحق ولا الصلاة في المسجد النبوي ثم شرطت ذلك على الزبير فتحيل عليها أن كمن لها لما خرجت إلى الصلاة ضربها على عجيزتها، فلما رجعت قالت: انا لله فسد الناس فلم تخرج»(١)(٢).

أما أبو عمر يوسف بن عبد البر فقد حدد العضو الذي جسّه الزبير فقال إنه الكِفْل:

(كان الزبير شرط ألا يمنعها من المسجد وكانت امرأة خليقة وكانت إذا تهيأت إلى الخروج للصلاة قال لها: والله إنك لتخرجين وإني لكاره فتقول: فامنعني فأجلس فيقول: كيف وقد شرطت لك ألا أفعل. فاحتال فجلس لها على الطريق في الغلس، فلما مرت وضع يده على كِفْلها فاسترجعت ثم انصرفت إلى منزلها)(٣) والكِفْل هو: العجز حسبما ورد في «المصباح المنير» وهو بهذه المثابة أوسع مساحة من العجيزة التي هي الرِدْفان.

أما عز الدين بن الأثير مؤلف «أسد الغابة» فيخبرنا أن التحسيس انتقل من الحقيبة الممتلئة إلى الأفخاذ الغليظة السمينة وهذا أوعر وأشد فحشاً.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المجلد السابع، ص٦٦٣، دار الغد العربي، مصر.

(٢) حياة الصحابيات لحمزة النشرتي وآخرين، ص٢٧٠، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، الناشر هو المصنف الأول، مصر.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق محمد علي البجاوي، المجلد الرابع كتاب النساء وكناهن، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت، سابق.

(عاتكة بنت زيد... كانت حسناء جميلة وكانت تحضر صلاة الجماعة في المسجد... فلما خطبها عمر شرطت عليه أنه لا يمنعها من المسجد ولا يضربها فأجابها على كره منه فلما خطبها الزبير ذكرت له ذلك فأجابها إليه أيضاً، فلما أرادت الخروج إلى المسجد للعشاء الآخر شقّ ذلك عليه ولم يمنعها فلما عيل صبره خرج ليلة على العشاء وسبقها وقعد لها على الطريق بحيث لا تراه، فلما مرت ضرب بيده على فخذها، فنفرت من ذلك ولم تخرج بعد)[1].

ويبدو والله أعلم أن الضلع الثالث بدأ بالتمليس على المؤخرة بيد أنه لم يأت بالنتيجة المرجوة فنقله إلى الفخذين فخشيت عاتكة أن يتحول العبث إلى عضو أشد خصوصية فعدلت عن الخروج. وسواء أصاب هذا الغرض أم لا فهل يليق بأي مقياس أو يجوز بأي معيار أو يصح بأي ميزان أن يقدم ابن العوام على هذا العمل الطائش.

عاتكة امرأته لا مراء ولكن لا يتفق مع تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق أو قواعد الاجتماع أو أعرافه امتهان كرامتها في الشارع بهذه الأياة (الهيأة وزناً ومعنى)؟

لو أن أحداً رأى تلك «العملة» فماذا يظن بعاتكة؟

أليس الفعل الشائن المذكور مما يدخل من بوابة «اشاعة الفاحشة»؟

---

(١) أسد الغابة، السابع، كتاب النساء، ص١٨٥، مصدر سابق.

أما أن الغاية تبرر الوسيلة مهما بلغت فحاشتها؟

وبعد فإنها صورة سريعة لواحد من الثالوث غير المقدس الذي حارب بشراسة صاحب الحق الشرعي في الإمامة العظمى التقطناها من موقفه من النسوان.

لأن موقف الرجل من المرأة سواء هي أم أو أخت أو زوجة أو بنت يكشف عن حقيقة معدنه.

فإذا ثبت بالحجة القاطعة أن موقعه من النسوان لا يدل على نبالة أو يشي بشهامة أو يثبت فروسية يغدو لَحْسه للعهد الذي أعطاه إلى أبي الحسنين ثم معارضته إياه والتحريض على قتاله وقيادة الجيش في ميدان المعركة لحرية كلها أمور نابعة من نفسيته العليلة.

إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

يؤكد أهل السنة والجماعة أن التيمية عائشة بنت عتيق «أبي بكر» تعد من أعلم الصحابة (عن مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبي رباح كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس)[1][2]. وقال عروة «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[3].

ونكتفي بهذا القدر من الشهادات رغم رائحة التهويل والمبالغة التي تفوح منها بقوة.

ونسلّم جدلاً بها ونرجع ما حصلته ابنة أبي بكر من علم إلى أنها مكثت مع «الحبيب المصطفى» عليه وعلى آله أزكى السلام تسع سنوات إذ «كان بناء النبي ﷺ بها في شوال على رأس ثمانية

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لقاضي القضاة شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المجلد السابع، ص٦٦٧، د.ت.ن، دار الغد العربي بمصر.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر بن يوسف... عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، المجلد الرابع، ص١٨٨٣، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير/تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، المجلد السابع، ص١٩١، د.ت.ن، كتاب الشعب بمصر.

أشهر من الهجرة وكانت سنها وقتئذٍ تسع سنوات)[١] و(في الصحيح قالت عائشة: وقبض ﷺ وأنا بنت ثمان عشرة سنة)[٢]. فضلاً عن تمتعها بقدر جيد من الملكات العقلية مثل الذكاء والفطنة وقوة الذاكرة. إنما الذي لا مشاحة فيه أنها لم تطبق علمها وبعبارة أخرى لم تعمل بما علمت فهي لا شك قرأت القرآن العظيم ﴿وقرن في بيوتكن﴾[٣].

وهو خطاب موجّه حصراً وتحديداً لبعلات «جد الحسنين» عليه وعليهما السلام، بدلالة ما جاء على رأس الآية السابقة لها ﴿يا نساء النبي﴾. ويذهب معظم المفسرين إلى أن المقصود بـ﴿وقرن بيوتكن﴾ هو «إلزمن القرار في بيوتكن ولا تخرجن منها إلا بسبب مشروع، مثل إقامة الصلاة في المسجد أو حضور العلم أو زيارة الوالدين... أو شهود الجمع والجماعات..الخ».

وهذا ما فعلته كلهن ما خلاها[٤].

كما أنها لا بد سمعته - عليه وعلى آله من الله أفضل السلام - وقد جمعهن حوله وأخذ يتفرس في وجوههن ويقول:

(أيتكن صاحبة الجمل الأدبب يُقتل حولها كثيرون وتنجو بعد ما كادت) وهو حديث رواه عكرمة عن ابن عباس وأورده محمد بن

---

(١) حياة الصحابيات لحمزة النشرتي وآخرين، ص٢١، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، والناشر هو المؤلف الأول، القاهرة.

(٢) الإصابة، ذات المجلد، ص٦٦٦٦، مصدر سابق.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) تفسير القرآن الكريم للدكتور عبدالله شحاتة، الجزء الثاني والعشرين، ص٤٣٠٣، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠م، دار غريب، مصر.

عبد البر في الاستيعاب ووصفه بصحة الاسناد وأضاف إنه «من أعلام نبوته ﷺ»(١).

ومع ذلك كله لم تتورع عن الخروج لمحاربة صاحب الخلافة الشرعية أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وتحرض عليه وشكلت الضلع الثالث مع الزبير وطلحة بعد أن بايعاه وأعطياه صفقة يمينهما.

وشاركت في وقعة الجمل بل من الأصح أن يقال إنها رأس حربتها وحول هودجها قتل الألوف من المسلمين لا يحصيهم عدداً إلا الله.

مع ذلك وحتى هذه اللحظة لا زال الطبالون والمدّاحون يصرون على أنها الأعلم والأفقه والأفطن إلى آخر صيغ «أفعل التفضيل» التي لا يملون ترديدها ولا يستحون من تكرارها ولا يخجلون من لوكها.

ألم يدر بخلد أحدهم أن علم العالم لا يكتمل بل لا يجوز أن ينعت بهذا الوصف إلا إذا وافق عمله، ولقد سجل القرآن المجيد على بني إسرائيل هذه الخطيئة ﴿أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب﴾(٢).

كم مؤلف وكاتب وباحث من السلف الصالح والخلف الفالح دبّج في سيرتها مقالاً أو بحثاً وكتاباً خصصه لها أو جمعها مع غيرها وصال وجال ومدح وأطنب في علمها وفقهها ثم سأل نفسه:

---

(١) الاستيعاب، ذات الجزء، ص١٨٨٥، مصدر سابق.
(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤.

هل يتفق جماعة مع ما أثبتته المصادر الوثيقة أنها حرضت على قتل الخليفة الثالث الأموي عثمان ورفعت للمصلين في المسجد المحمدّي الشريف قميص «الحبيب المُجتبى» وهي تصيح بأعلى صوتها (هذا قميص محمد لم يبل بعد وعثمان أبلى سنته - اقتلوا نعثلاً)(١).

ولمّا قُتل وتولى عليّ - عطر الله مرقده - الخلافة بالمبايعة الشرعية انقلبت عليه وثارت ضده من دون وجه حق بل حرّشت على قتاله وساهمت بنفسها في المعركة وتسببت في مصرع ألوف المسلمين؟

الإجابة على هذه الأسئلة كلها بالسلب فلا أحد منهم وجّه لنفسه مثل هذا الاستفسار، ولو مرّ بخاطره فلا يجرؤ على أن يقدم إجابة تتفق مع مسؤولية الكلمة وأمانة العلم.

من بين ما يطرحه أولئك التفخيميون كدليل دامغ على غزارة علم التيمية بنت أبي قحافة استدراكاتها على الصحابة بل وعلى الأكابر منهم.

والاستدراكات تعني باختصار تصحيح الأغلاط التي وقع فيها أولئك الصحاب عند روايتهم لأحاديث «سيد الخلق» عليه السلام وعلى آله.

وأشهر من كتب فيها بدر الدين الزركشي من علماء القرن الثامن الهجري وصاحب المؤلف المشهور «البرهان في علوم القرآن»،

---

(١) نعثل يهودي سحنته وأياته (هيأته) وسمته كلها مثل عثمان.

وكتابه في الاستدراكات يحمل عنوان (الإجابة على ما استدركته عائشة على الصحابة) وقد بلغ عدد من خطّأتهم أو استدركت عليهم أكثر من اثنين وعشرين من بينهم: أبوها عتيق والعدّوي عمر بن الخطاب وابنه عبدالله وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري وعبدالله وعروة ولدا الزبير وعبد الرحمن بن عوف وآخرون.

منهم من خطأته في حديث واحد ومنهم ما في أكثر، فعلى سبيل المثال: عمر بن الخطاب العدوي (٨ أحاديث) وابنه عبدالله (١٠ أحاديث) أما أبو هريرة فهي لم تستدرك عليه بل أنكرت عليه ونال نصيباً موفوراً من استنكاراتها (٨ أحاديث) ولعل من بين أسباب تلك الحملة منافسته إياها على التزلف لبني أمية لكسب رضاهم ونوال عطاياهم حتى أنها غفرت للطليق ابن الطليق معاوية بن أبي سفيان قتله أخاها عندما أرسله الإمام علي - كرم الله وجهه - إلى مصر أميراً عليها وعلّة مسامحتها إياه معروفة لا تحتاج إلى فطانة وعندنا في صعيد مصر مثل عامي شعبي يقول: «أطعم الفم تستحي العين».

ثم عود إلى السياق:

الأمر الغريب أن الزركشي بكل جرأة على الحق ادعى أنها استدركت على أبي الحسنين - رضي الله عنه وأرضاه - حديثاً فرداً لا ثاني له، كأنما حزبه ألا ينال علي نصيبه من الاستدراك وهدفه أن يظهر التيمية التي صنف كتابه من أجلها أنها أعمق علماً وأغزر فقهاً وأصح حديثاً من أمير المؤمنين علي!

ووجه الغرابة أن الزركشي وصفه المحقق أنه إمام إذن هو بهذه المثابة وبطريق الحتم واللزوم يعرف مكانة علي بن أبي طالب العلمية بين الصحابة ولدى سائر المسلمين سنة وشيعة وأن مقارنته بالتيمية عائشة في العلم والفقه والحديث..الخ، ظلم فادح فما بالكم أنها تستدرك عليه!

إن هذا لشيء عجاب!

لا تتسع المساحة المحدودة لهذا المقال لإثبات المقام العالي الذي يحتله بجدارة الإمام علي وحسبنا أن نأتي بشواهد سريعة.

(روي عن النبي ﷺ أنه قال: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت بابه)(١).

وطوال مدة خلافته اعتمد عمر بن الخطاب على فتاوى علي وعلمه وفقهه «عن سعيد بن المسيّب قال: كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن»(٢).

وعبدالله بن العباس - حبر الأمة كثيراً ما ورد (إذا اثبت لنا الشيء عن عليّ لم نعدل عنه إلى غيره)(٣).

والحديث رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، الثالث، ص١١٠٢، مصدر سابق.

(٢) أسد الغابة، ذات الصفحة والجزء.

(٣) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للإمام بدر الدين الزركشي٧٩٤/٧٤٢هـ، تحقيق د.رفعت فوزي فوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٧١، الناشر مكتبة الخانجي بمصر.

هذه ثلاث شهادات ترسّخ المكانة الباذخة في العلم للإمام عليّ - نور الله ضريحه - وحسبك أن تتقدمها شهادة الصادق المصدوق عليه وعلى آله السلام.

نأتي إذن إلى الاستدراك اليتيم الذي يدعي الزركشي أنها أخذته على أبي الحسنين وهو المسح على التساخين، قيل مرة إنها أغطية للرأس وأخرى إنها الخفاف ورجّحها ثعلب وقال: لا واحد لها.

ذلك أن أُبيّ بن كعب سأل عائشة رأيها في فتوى علي بشأنه فقالت له: ارجع اليه فقل له إن عائشة تنشدك هل علمت ما عمل رسول الله ﷺ بعد تنزيل سورة المائدة؟.

فلما أخبره «أُبيّ» ذلك انتهى إلى قول عائشة وعمل به.اهـ[١].

ومن العجيب أن المصنف الزركشي ذكر أن هذا الحديث في اسناده من يُجهل ومع ذلك أخذ به.

أما المحقق فقد أكد أنه لم يجد هذا الاستدراك إلا لأبي منصور الثعالبي.

ليس هذا فحسب بل إن الزركشي ذاته يضيف أن الحديث لا يصح وروى حديثاً ورد في صحيح مسلم موجزه أن شريح بن هانئ سأل عائشة عن المسح على الخفين فاحالته على علي فقال له (جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهم للمسافر ويوماً وليلة للمقيم).

---

(١) ذات المصدر، ص٧٢، وذكر المحقق أنه ورد في صحيح مسلم في كتاب الطهارة.

وأردف أن النسائي رواه من حديث عائشة عن شريح أنه سألها عن المسح عن الخفين فأجابت (كان رسول الله ﷺ يأمرنا بأن يمسح المقيم يوماً وليلة والمسافر ثلاثاً)[1].

هكذا يثبت الزركشي المصنف أو المصنف الزركشي تناقضه الصارخ وتخبطه البيّن فهو يدعي بوجود الاستدراك ويأخذ به رغم اعترافه بوجود جهالة في إسناده.

ثم بعد سطور يهدمه من أساسه بحديث ورد في صحيح الإمام مسلم وهو المصلّى «التالي» لصحيح البخاري بالإضافة إلى حديث للنسائي صاحب أحد الصحاح الستة التي تعتبر ذروة سنام دواوين الحديث لدى أهل السنة والجماعة.

إن الزركشي عزّ عليه ألا يجد استدراكاً من التيمية بنت عتيق على باب مدينة العلم أمير المؤمنين عليّ فسطّر هذا التناقض الصارخ وهي سقطة وعرة لا نجد لها مبرراً إلا أن نفسه لم تسمح له أن يقرر أن عائشة استدركت على أكابر الأصحاب إلا الإمام علي وبذا أثبت أنه غير مدرك أن علمها لا يسامي علمه وفقهها لا يداني ما يحتويه صدره الشريف من كنوز العلوم.

(١) ذات المصدر والصفحة.

ماذا يعني تكليف الإمام عليّ بتأدية سورة براءة

حفل العام التاسع الهجري بعدة وقائع فهو عام الوفود، إذ بعد فتح الفتوح: فتح مكة غدا «الحبيب المصطفى: محمد» عليه وآله السلام سيد الناس وديّان العرب كما وصفه الأعشى فأرسلت القبائل ممثليها ليقدموا فروض الطاعة ويعلنوا دخولهم الإسلام الذي يعني الانضواء تحت علم دولة قريش.

وفيه هلّت سورة براءة/التوبة فهي بإجماع مدنية[1] ومن آخر القرآن الكريم.

ونظراً لخطورة الموضوعات التي انضوت عليها فقد أطلق عليها ما يقرب من عشرة أسامي أهمها الفاضحة والمقشقشة والمنقرة والحافرة والمبعثرة والمخزية والمدمدمة والمشردة[2] فهي فضحت المنافقين وشلّحتهم من ورقة التين التي يغطون بها سوأتهم أي نفاقهم، هذا من ناحية.

---

(١) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمد إبراهيم سليم، ص١٦٨-١٦٩، طبعة ١٩٨٨، مكتبة ابن سينا، مصر.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت٩١١هـ، الجزء الأول، ص٧٢، الطبعة الرابعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

ومن رجا[1] آخر حددت المواقف مع المشركين سواءً الذين ربطتهم معاهدة أي عقد أو من لا عهد لهم ولا ذمة (نزلت هذه الآية يعني ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾[2] فيمن كانت بينه وبينهم موادعة جعل مدتهم أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر من شهر ربيع الآخر وجعل موادة من لم يكن بينهم وبينه «يعني أي شرط» خمسين يوماً ومن يوم النحر إلى آخر المحرم)[3].

ومن جانب ثالث:

خلّصت شعيرة الحج من الأدران التي لطّخها بها الكفار عبدة الأصنام. فلا يطوف حول الكعبة عريان ولا تطأ قدم مشرك المسجد الحرام لأنه نجس.

(﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس...﴾[4] أي خبثاء النفوس فلا يصح منهم أن يدخلوا المسجد الحرام)[5].

من البديهي أننا لسنا بصدد عمل احصاء للمواضيع التي جاءت في السورة إنما اقتصرنا على أهمها خاصة فيما يتعلق بمادة هذا المقال.

هذه السورة المجيدة أشرقت كالشمس في رابعة النهار بعد أن فارقت «بعثة الحج» وعلى رأسها التَيْميّ عتيق بن أبي قحافة القرية ذات الحرتين نعني يثرب.

(١) الرجا: الناحية والجمع أرجاء، «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية بمصر.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢.
(٣) الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة، ص٢٦، د.ت.ن، مكتبة المتنبي، القاهرة.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٥) التفسير الميسر على هامش القرآن الكريم ومصحف الأزهر للشيخ محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر.

وكما ألمحنا فإن بها أموراً يتعين إعلام الكافة مثل البراءة من المشركين وإنهاء العقود والمواثيق بعد أمد محدد وإمهال من صَفُرت أياديهم من عهود وتحريم المسجد الحرام على غير المسلمين وحظر العُري ابّان الطواف..الخ.

ومن ثم فمن الطبيعي أن يقوم به «المعصوم من الناس» عليه وعلى آله السلام بنفسه الشريفة بيد أنه مشغول تماماً في ترتيب الوضع بعد فتح قرية القداسة «بَكّة» واتخاذ الحياطة والحذر الشديدين مع الأرستقراطية المكية حديثة العهد بالإسلام وهم الطلقاء(١)، فضلاً عن المهمة ذات الوزن الثقيل وهي استقبال الوفود القادمة من سائر أنحاء جزيرة العرب.

... قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي.

ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له اخرج بهذه القَصّة من سورة براءة وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه: لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان..الخ(٢).

---

(١) من نكد الدنيا والشؤم وسوء الحظ أنه بعد أقل من نصف قرن أصبحت مقاليد الإسلام ومصائر المسلمين، وفي مقدمهم مئات الصحابة، في أيدي هؤلاء الطلقاء يتلاعبون بها كيفما شاءت لهم أهواؤهم، وعلى رأسهم ابن هند آكلة المرار الطليق ابن الطليق معاوية بن أبي حنظلة: أبي سفيان.

(٢) السيرة لابن إسحاق، المجلد الثاني، ص٢٩٧، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وآخر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، قطاع الثقافة، دار أخبار اليوم بمصر.

ومما له دلالة لا تخفى على الفطن «فخرج علي بن أبي طالب - على ناقة رسول الله - العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق»[1] أي إنه أعطى علياً ناقته الخاصة وأدى أمير المؤمنين عليّ المأمورية على أكمل وجه فهو لم يقتصر على التبليغ بما ورد في براءة/التوبة يوم النحر «فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم حتى إذا فرغ قام عليّ فقرأ على الناس براءة حتى ختمها[2]، ثم قام بالصنيع ذاته يوم النحر وهو الواجب الرئيس الذي نُدب إليه ثم كرره يوم النفر الأول بذات المنوال.

يبدأ التيمي أبو بكر بما يريد أن يشافه به الحجيج ثم يعقبه الإمام عليّ والذي يحيط علماً بالمبادئ الأولية لمقتضى الخطاب ينقه «يفقه» أن قالة عتيق بن أبي قحافة ليست كافية أو لم تفِ بالمطلوب ولا بد لها من تكملة وتستلزم تتمة وتحتاج لما يسد نقصها وهو ما فعله الإمام عليّ.

ومن ثم فنحن لا نوافق على ما يذهب إليه بعض الأخوة البُحّاث الأفاضل أن التيمي لم يرأس بعثة الحج ذياك العام بل الذي تولاها هو أبو الحسنين وأسانيدنا في ذلك وفيرة نقتصر منها على:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ت بمصر ٢١٣هـ، تحقيق محمد فهمي السرجاني، الجزء الرابع، ص١٤٠، طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية، سيدنا الحسين بمصر.

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني، ٨٥١/٩٢٣هـ، المجلد الأول ٣٠٨، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الغد العربي بمصر.

أ- أمهات كتب السيرة المحمدية المعطرة نصت على إمارة أبي بكر للحج في تلك السنة وقد رأينا هنا ثلاثة منها: «سيرة ابن إسحاق» «سيرة ابن هشام» و«المواهب» للقسطلاني.

ب- أكد المقريزي استعمال «المجتبى» لأبي بكر على الحج «وكتب له بنفس الحج لأنه اشتكى أنه لا علم له بالقضاء فخرج في ثلاثمئة رجل وبعث معه بعشرين بدنة قلدها النعال وأشعرها بيده في الجانب الأيمن»(١).

وعبارة «لا علم له بالقضاء» تشّد الانتباه بقوة ثم تستنفر في الذهن اجراء مقارنة بينها وبين الحديث الشريف «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».

ج - إن توجه الإمام عليّ لأداء مأمورية تبليغ سورة براءة في موسم الحج الذي على رأس بعثته التيمي عتيق لا يغض من مكانة عليّ بن أبي طالب ولا يخدش قدره وكعادتنا لا نلقي الكلام على عواهنه مرسلاً من دون دليل يؤازره أو حجة تؤيده أو برهان يؤكده: فعتاب بن أسيد الأموي العبشمي من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح، شأنه في ذلك شأن الغالبية العظمى من رجال ونسوة رهطه «بني أمية» وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين، أي إنه شاب غضّ الإهاب:

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي، ٨٤٥هـ، تحقيق محمد النميسي، الجزء الأول، ص٣٦٠، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الأنصار بمصر.

(أسلم يوم فتح مكة واستعمله النبي على مكة عام الفتح)[1] مع ذلك «حج بالناس سنة الفتح»[2].

من البديهي أن حج معه عامئذ عدد من الصحابة الذين لهم سابقة في الإسلام وفي الجهاد.

فهل يعني هذا أن «المنصور بالرعب مسيرة شهر» خربش من مكانتهم أو غضّ من قدرهم أو خفضّ مقاهم عندما أمّر عليهم ذلك الشاب الغندور الأموي الطليق حديث العهد بالإسلام؟ إن من يجيب بكلا بملء فيه يتعين عليه أن يوافينا بذات الرد ويقول وهو ثابت الجنان:

إن بعث «ذؤابة قريش» للإمام علي لتبليغ سورة التوبة في موسم الحج الذي ترأسه أبو بكر لم ينل من مكانة ابن عمه بل إن العكس هو الصحيح.

وكيما نقرب المسألة ننقلها إلى مصطلحاتنا الحديثة:

لنفرض أن رئيس دولة أرسل مندوباً لأداء مهمة عادية في بلد آخر ثم جدّ أمر استدعاه أن يبعث مفوضاً سامياً كيما يقوم بتبليغ هذا الأمر والمندوب ما زال هناك. فهل يقول من لديه ذرة من حجى

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ٤٦٣-٣٦٨هـ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المجلد الرابع، ص٥٤٢، د.ت، دار الغد العربي بمصر.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - ٨٥٢/٧٧٢هـ - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - المجلد الرابع/ص ٥٤٣ - د.ت./ دار الغد العربي. هذا المصدر وسابقه يضمهما مجلد واحد.

أو مُسكة مَن نُهى أو فُتيتة[١] من عقل أن المفوض أخفض مكانة أو أدنى مرتبة أو أقل مقاماً من المندوب السامي!.

إن تكليف أمير المؤمنين بتلاوة سورة براءة /التوبة وما حفّ به من تبليغات شأن خطير له دلالات لا تخفى على اللقن ولا تستبهم على الذكي ولا تغيب عن اللوذعي ولا تستتر على الفطن.

بيد أنها والعديد من الإشارات والكثير من العلامات والغزير من الآيات تمّ تجاهلها لأسباب متنوعة يعلمها القراء.

(١) العامة في مصر تقول «فتفوتة» أي حتّة بفتح الحاء، وهي القطعة الضئيلة من الشيء.

(مايسترو) الطبالين والزمارين في مديح (آل أبي بكر)

دأب (سيد الناس وأشرف الخلق) عليه وآله أزكى السلام على أن يقرع بين نسوته التسع كلما خرج لغزوة.

في غزوة بني المصطلق (المريسيع) خرج سهم على أم سلمة بنت زاد الركب، وآخر على التيمية بنت أبي قحافة التي لم تتجاوز آنذاك الرابعة عشرة من عمرها أي (حَدَثَة) كما وصفتها والدتها أم رومان في واقعة سابقة، وقد أخذت معها عقداً (قلادة) لتحلي به جيدها في منافسة لضرتها - الحسنة الوضيئة الأثيرة لدى (ذؤابة قريش) عليه وآله السلام - هند (أم سلمة).

في طريق العودة وليفوع (صغر سن) ابنة عتيق أضاعت العقد وأخبرت عنه (المجتبى) عليه وآله السلام فأمر بالتوقف والعمل على التماسه.

كانوا في بيداء قفر وليس معهم ماء فأصاب العسكر حرج وانتابهم ضيق وركبهم غم فذهب مقدموهم إلى والدها أبي بكر وشكوا له ما نالهم من عنت من جراء ما فعلته ابنته الصغيرة.

فتوجه إليها (في خبائها) وطفق يعاتبها ويغلظ لها المقال بل وأخذ يطعنها بيده في خاصرتها ويخاطبها لائماً (حبست رسول الله والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء) وكان (أبو القاسم)

نائماً فلما استيقظ وأحيط خبراً بما حدث هلّت كالبدر في منتصف الشهر آية التيمم (س٥/-آ٦)[١][٢][٣].

ومن الغريب أن بقية الخبر (فبعثنا البعير الذي كنت عليه «يعني عائشة راوية الحديث» فأصبنا العقد تحته)[٤].

الذي يهمنا عجز الخبر، وموجزه أن صحابياً من القرية ذات الحرتين (يثرب)، له مقام مرموق ويحمل على صدره عدة نياشين وتاريخه مشرف في نصرة الدين وتأسيس الدولة التي هي دولة قريش. ما أن تسمع آية التيمم حتى أرقل (أسرع) إلى تلك الزوجة التي لم تستطع أن تحافظ على حليتها، وهو ما تحرص عليه أي فتاة في بيئة بدوية أو حضرية، وإلى أبيها التيمي ابن أبي قحافة وقال (ما هي أول بركتكم يا آل أبي بكر)[٥]. هذا الصحابي هو أسيد بن الحضير.

عندما قرأت الخبر أول مرة ساءلت نفسي: ما هي البركة التي عناها؟

---

(١) صحيح البخاري، باب التيمم.

(٢) إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي ٩٧٥/١٠٤٤هـ، الجزء الثاني، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، مكتبة الحلبي بمصر.

(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني، الجزء الأول، ص٢٠٢، الطبعة الأولى١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الغد العربي، بمصر.
والواقعة مرقومة في العديد من كتب أسباب النزول والتفاسير ودواوين السيرة المحمدية العطرة التي هي أحلى مذاقاً من تفاح الشام.اهـ.

(٤) صحيح البخاري، مصدر سابق.

(٥) ذات المصدر.

بداهة إن كل آية في القرآن العظيم وحرف بركة، لكن أسيداً لم يقصد إليه وإلا توجب عليه كلما تليت عليه آية مجيدة أن ينعتها بذلك.

فآية التيمم بزغت كالشمس في رابعة النهار في وقت عصيب، وعالجت حالة ضرورة حازبة لا يلجأ المسلم إلى حكمها إلا وهو مضطر.

وتوصلت إلى أن ابن حضير استهدف التزلف إلى الزوجة الغندورة[١] التي يعرف مدى حب (المصطفى) لها وتهيئة والدها[٢].

من اللافت للنظر أنه ليس في حاجة لأن يفعله فهو أشهلي أوسي أنصاري شهد العقبة الثانية كنقيب لرهطه (بني عبد الأشهل)، وأُحُداً وما بعدها، وتمت المؤاخاة بينه وبين الحِبِّ زيد بن حارثة (وقتها قبل تحريم التبني كان يسمى زيد بن محمد.اهـ) وله صوت حسن جميل في ترتيل القرآن، كما أنه أحد العقلاء الكُمّل من أهل الرأي[٣][٤][٥].

(١) المعجم الوجيز، الغندر والغندور: الناضر.
(٢) المعجم الوجيز، هيأ الشيء: أعده لتحقيق غرض خاص، في أساس البلاغة للزمخشري: هيأته فتهيأ.
(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص١١٢، طبعة «الشعب» بمصر.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمري، الأول، ص٢٨٢، طبعة دار الغد العربي بمصر.
(٥) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، الأول، ص١٥٨، الغد العربي.

بيد أن هناك نفوساً جبلت على التقرب إلى (أهل القمة) في أي موقع، إما لنوال عطاء مالي أو دعم معنوي، علاوة على ما يحققه لهذه النوعية من البشر من استقرار عاطفي واطمئنان نفسي وراحة شعورية إذ يتوهمون أنهم بهذا التقرب، غدوا على وفاق مع من يملكون العقد والحل أو بمن في أيديهم مقاليد السلطة وصنع القرار بالتعبير الحديث. فإن هم أصلاً على قدر من اليسار (المادي) فيلزم أن يجمعوا إليه الأمان المعنوي الذي يحوزه من يتحبب إلى المتنفذين.

أما إن صَفُرت (خلت) جيوبه من المال ففي مخططه أن يبوس أقدام الصفوة الحاكمة(١) إذ يعتقد أنه بهذا المسلك سوف يحقق: الحصول على الثروة ونوال الدعم المعنوي. في حالة أسيد انحصر هدفه في الحصول على الكسب الأدبي والتأييد المعنوي.

لم تخب فراسته إذ سرعان ما ردت إليه التيمية بنت التيمي/الجميل(٢) بأحسن منه إذ نصبته واثنين معه على كرسي رئاسة عموم بني قَيْلة لا على بني عبد الأشهل رهطه الأدنين فحسب ولا الأوس عشيرته: «حدثنا يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه(٣) عن عائشة قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد

---

(١) يبوس: يقبل، وهي كلمة عربية صحيحة.

(٢) يوجد مثل شعبي نصه: شيلني وأشيلك.

(٣) سبق أن أطلقنا على مثل هذا الخبر أنه (حديث عائلي)، فهنا راوي الحديث حفيد للزبير بن العوام التيمي زوج أسماء التيمية بنت أبي بكر وهي أخت التيمية عائشة (أخت غير شقيقة من الأب فقط.اهـ).

يلحق في الفضل كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد ابن حضير وعباد بن بشر»[١] إذن ما أن وصف ابن حضير الكتائب نواتج فِعال (آل أبي بكر) بالبركة حتى ولو أنها تحكم حالة ضرورة ولا يلجأ إليها إلا المضطر، حتى كافأته التيمية ابنة عتيق مكافأة جزيلة بأن جعلته ثاني ثلاثة لا يشركهم غيرهم في التسيد على أعاريب بني قَيْلة.

تاه ابن الحضير بهذا اللقب الباذخ الذي نفحته اياه زوج (قائد الغُرّ المحجّلين)، فخراً وأسرّ لنفسه أنه نجح في التحبب إلى (آل أبي بكر) وأن خطته التي رسمها فلجت وصار بمقتضى التصريح الخطير الذي أدلت به عائشة من أكابر الرؤساء الغطاريف النجب على عرب قرية الحرتين بفرعيهم الأوس والخزرج.

لما انتقل (المعصوم) إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً استمر أسيد يسير في ذات الطريق.

في سقيفة بني ساعدة عند احتدام الجدال على من يفوز بكرسي الخلافة بين الأنصار من جهة والثلاثي: أبي بكر التيمي وعمر العدوي وأبي عبيدة الفهري من جهة أخرى، علماً بأن كل فريق كان يسعى جاهداً للاستئثار بها دون صاحب الحق الشرعي فيها.

استشعر أسيد أن كفة التيمي هي الراجحة وأن الأمر أخذ يخرج من يد سعد بن عبادة رأس الخزرج وزعيمهم ومرشحهم، فسارع إلى مبايعة عتيق (التيمي).

---

(١) الإصابة، الأول ١٥٨، مصدر سابق.

بهذا المسلك الانتهازي أصاب عصفورين بحجر واحد:

الأول: قضى على أمل الخزرج في فوز سيدهم بالمنصب ومعلوم أن هؤلاء هم أعداؤهم أو على الأقل خصومهم التقليديون.

الآخر: اصطناع يد (عمل معروف) لدى أبي بكر والتحبب إليه وهو على وشك أن يتربع على دست الإمامة العظمى وينتزعها ممن أهّل لها بكل المقاييس.

وقد ذكر المؤرخون الأثبات وأصحاب كتب سيّر الصحابة هذا الدور الذي نفذه أسيد بمهارة يحسد عليها:

أ- (وله في بيعة أبي بكر أثر عظيم)(١).

ب- وذكر اليعقوبي أن أسيد هو الثاني من بني قيْلة (الأنصار) من مبايعة التيمي(٢).

ونكتفي بهذين ومن أراد المزيد من التفصيلات فعليه الرجوع إلى المصادر بعد أن فاز التيمي عتيق بالخلافة ونتشها من صاحبها الشرعي يغدو من الطبيعي أن يجازى هذا الأسيد خير الجزاء وأوفاه (كان أبو بكر الصديق يكرمه ولا يقدم عليه أحداً)(٣)(٤).

ولنلاحظ العبارة الأخيرة أنه لا يقدم عليه سواء من المهاجرين أو الأنصار! وكيف لا يفعل وقد حسمت مبايعة أسيد له خذلان الخزرج وخروجهم مهزومين لأنها كشفت عن تأييد (الأوس) له.

---

(١) أسد الغابة، الأول، ص١١٢، مصدر سابق.

(٢) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٢٤، من دون تاريخ نشر، دار صادر، بيروت - لبنان.

(٣) أسد الغابة، الأول، ص١٥٨، سابق.

(٤) الإصابة، الأول، ص١٥٩، مصدر سابق.

وانتقل التكريم إلى عمر بن الخطاب العدوي حتى أنه عندما توفي أسيد إلى رحمة مولاه أصرّ العدوي وهو آنذاك خليفة على أن يحمل نعشه حتى البقيع والصلاة عليه(١)، وحُقّ للضلع الثاني من ثلاثي سقيفة بني ساعدة أن يفعل، لأن التيّمي (الذي كان أحد أسباب فوزه بالخلافة موقف أسيد) عيّن - عن طريق الأمر المباشر ولا اعتبار للشورى التي نصّ عليها القرآن المجيد - عمر ليخلفه في المنصب، إذن ابن حضير صاحب فضل على الأخير في استحواذه على ما لم يكن يحلم به لا في المنام ولا في اليقظة، ويعلم في قرارة نفسه علم اليقين أن المنصب قد اغتصب منذ البدء من صاحب الحق الشرعي فيه.

وهكذا تقاضى ابن حضير الكتائب ثمن تملقه حياً وميتاً.

❖ ❖ ❖

بعده تحوّل التزلف إلى مدائح كتابية على يد الطبالين والزمارين الذين أضفوا على التيمي وابنته هالات وأوصافاً منها العلم الغزير الفيّاض، وذلك بقيادة بعض التابعين ثم من جاء بعدهم مثل الزركشي ومن تلاه، أما حملة المباخر المعاصرين فقد زادوا عليه (العلم) العبقرية.!!! ولسنا في حاجة إلى أن نسطر أن هذا الجوق (أو هذه الفرقة) يهدف إلى هبش (كلمة فصيحة) مغانم مادية ومعنوية لا تحصى. إذن ألا يحق لنا أن نصف ذاك الأسيد بأنه (مايسترو) الطبالين والزمارين في مديح (آل أبي بكر)؟

(١) الاستيعاب، الأول، ص٢٨٢، مصدر سابق.

المصحف الإمام لا مصحف عثمان

في حياة الحبيب المصطفى عليه وآله أزكى السلام فرَّ العدوي عمر بن الخطاب من وجه العدو في عركة أحد ومعه الأموي عثمان ابن عفان وآخرون بيد أنه «عثمان» قدم يداً بيضاء تمثلت في مساهمة كبيرة في تكاليف جيش العسرة شكره عليها أبو القاسم.

وعندما تعاونت الطبقة الجديدة من الطلقاء وأضرابهم التي ركبت قطار الإسلام في المحطة الأخيرة «فتح مكة» مع المتمولين أصحاب الثروات الأسطورية مثل عبد الرحمن بن عوف - على إقصاء صاحب الحق الشرعي في الخلافة وتنصيب عثمان، انتظر ابن عوف أن يرد له الجميل ويكافئه على صنيعه ولكنه لم يفعل وولى وجهه شطر رهطه الأدنين بني أمية، ما أحنق عبد الرحمن فبعث له رسالة شفوية يعيره فيها بفراره من الزحف واستمر في الشطر الأول من خلافته لا بأس به أو بتعبير أدق لا له ولا عليه إنما في النصف الآخر ارتكب أخطاء جسيمة أغضبت عليه حتى كبار الصحابة فمحضوا له النصح، ولكن من دون جدوى لأن حاشية السوء سيطرت عليه واستمر في مسلكه حتى أن التيمية بنت أبي بكر رفعت قميص «سيد الخلق» وأظهرته للمصلين في مسجده وصاحت:

هذا قميص محمد لم يبل بعد وعثمان أبلى سنته، أي خالفها وضرب بها عرض الحائط.

وإذ إن القاعدة الشعبية العريضة لا تصبر على الظلم طويلاً فقد ثارت عليه واغتالته في ما عرف في التاريخ الإسلامي بـ«يوم الدار» والحق أنها نهاية مأساوية لا يستحقها عثمان الذي عرف بخصلتين نادرتين في الرجال الحياء والكرم.

والذي يتحمل وزرها مستشارو السوء ووزراء الشؤم من بني عمومته المروانيين.

لم يجد الأمويون محمدة يضيفونها إلى جانب عثمان سوى أنه جمع القرآن ودوّنه في مصحف وحّد المسلمين عليه - ثم تولى جهاز دعاية الأسرة الأموية تضخيم هذا العمل ونشره على أوسع نطاق.

لم يقف الأمر عند ذلك بل أخذوا ينسبون المصحف الإمام إليه فقالوا: مصحف عثمان - أو المصحف العثماني والخط العثماني والرسم العثماني وللأسف ابتلع المسلمون الطيبون المخمومو القلوب هذا الطعم وخاصة «أهل السنة والجماعة» وما زالوا(١).

في حين أن دور الأموي عثمان فيه هو التنفيذ بصفته الحاكم - فالفكرة لم تخطر له على بال ولم يلتفت إليها إنما الذي تنبّه إليها غيره فطرحها عليه فاقتنع بها وأصدر - بما له من سلطة - الأمر بتحقيقها.

---

(١) انظر على سبيل المثال «مصحف الحرمين والمسجد الأقصى»، بالرسم العثماني، أصدرته مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة.

إن أول من شرع في جمع القرآن - بعد انتقال المصطفى عليه وآله أزكى السلام - إلى ربه راضياً مرضياً هو أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب - نوّر الله ضريحه: - (وقد روي أن علياً - رض - أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتباً حسب نزوله أولاً فأولاً كما رواه ابن أبي داود رحمه الله)[1].

إنما يبدو أن مشاغل أبي الحسنين وما تعرض له من جحود ونكران وغمط لحقه الشرعي في تولي الخلافة حال دونه.

ولو تمّ لساعد كثيراً على حل مشكلات الناسخ والمنسوخ ومعرفة النوازل وتواريخ حدوثها والوقائع وترتيبها الزمني..الخ.

وإذ إن الخبر لم يتأكد بصورة جازمة، فمما لا مشاحة فيه أن الصحابي حذيفة بن اليمان هو صاحب الاقتراح.

فقد لاحظ:

أ- وهو في العراق اختلاف قراءة ابن أم عبدالله أي عبدالله بن مسعود عن قراءة أبي موسى الأشعري فعزم على إبلاغ الخليفة الثالث:

(عن أبي الشعثاء قال: كنا جلوساً في المسجد وعبدالله يقرأ فجاء حذيفة فقال: قراءة ابن أم عبد وقراءة أبي موسى والله إن بقيت حتى آتي أمير المؤمنين «يعني عثمان» لأمرته يجعلها قراءة واحدة، قال فغضب عبدالله فقال لحذيفة كلمة شديدة قال فسكت حذيفة)[2].

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير، ٧٠٠/٧٧٤هـ، ص٧٤، الطبعة الأولى ١٩٧٩م، الناشر: علي رحمي، مصر.

(٢) كتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني، ص٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ب- وهو في ميدان القتال في ارمينية وأذربيجان كأحد القواد مع عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وأخيه سلمان وحبيب بن مسلمة.

اختلاف العسكر الشوام والجند العراقيين على قراءة القرآن واشتباكهم وتكفيرهم بعضهم بعضاً، ما أفزعه فانتهز فرصة نزوله إلى يثرب حاضرة الخلافة وهرول إلى عثمان الأموي وأخبره:

(روى البخاري بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك..)(١).

وبقية الخبر أنه شكَّل لجنة من ثلاثة شبان قرشيين على رأسهم سعيد بن العاص الأموي بحجة أنه «أعرب الناس» ومعهم أنصاري هو زيد بن ثابت مهمته الكتابة فقط «قال عثمان فليمل سعيد وليكتب زيد بن ثابت»(٢).

والأسئلة التي تنتصب في الذهن بقوة:

لماذا شكّل ابن عفان لجنة من صغار الصحابة وترك شيوخهم خاصة الذين شهد لهم «سيد الخلق» بالتضلع في الحفظ والجمع والقراءة مثل ابن مسعود وأبي موسى؟

(١) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص٧٨، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) فضائل القرآن، ص٢٢، سابق.

ولماذا وضع على رأسها أموي من رهطه؟

ولماذا حصر مهمة الأنصاري الوحيد زيد بن ثابت في مجرد الكتابة الذي يذكرنا بـ«كاتب الجلسة» في محاكمنا؟ إن الإجابة عليها تند عن موضوعنا.

الذي يعنينا أن إطلاق اسم «مصحف عثمان» بدل «المصحف الإمام» لا زال مستمراً للآن حتى أنا نجد باحثاً رصيناً مثل الدكتور صبحي الصالح يخصص في كتابه «مباحث في علوم القرآن» فصلاً قائماً برأسه بعنوان «المصاحف العثمانية»(١).

وترده الدكتورة سحر السيد إلى قوة تأثير الزمان أو الإمارة أي وقت النسخ والولاية أو العهد الذي أنجز خلاله (...بعد أن تمّ نسخ المصحف الجديد أو المصحف الإمام على قراءة واحدة وإحراق ما خالف ذلك من مصاحف وصحف بعث ابن عفان نسخاً من هذا المصحف إلى الأمصار الإسلامية ويقال لهذه المصاحف «المصاحف الأئمة أو المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته)(٢).

ونحن نخالفها فيما ذهبت إليه إنما النسبة العثمانية لصقت بـ«المصاحف الأئمة» تحت تأثير دعاية الطلقاء بني أمية.

ولقد تنبه الأئمة الأثبات لهذا الملحظ وطرحوا هذه الفرية وراء ظهورهم «ولهذا نص الإمام مالك على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة «الإمام»(٣).

---

(١) ص٩٠.

(٢) أضواء على مصحف عثمان بن عفان ورحلته شرقاً وغرباً للدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم، ص١٧، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير، ص٢٤، مصدر سابق.

أي المصحف الإمام ولم يقل على وضع مصحف عثمان أو الرسم العثماني أو الخط العثماني..الخ.

أما جرجي زيدان فقد طلع علينا برأي فيه قدر من الطرافة وإن حمل مكونات صلاحية «بالتنكير لأب التعريف» كسر سم الدعاية الأموية التي ما زالت مستشرية حتى الآن إذ يرى أن تسمية «الإمام» لا تطلق إلا على مصحف عثمان الخاص به والذي احتفظ به لنفسه واستأثر به من دون باقي أفراد أمة لا اله إلا الله[1][2]، أما الدكتور البري فقد أمسك العصا من وسطها إذ وسمها بـ«المصاحف العثمانية الأئمة»[3].

وإذ فعل فإن عينه الأولى على أمانة العلم ومسؤولية القلم والأخرى على أهل السنة والجماعة التي تدعي أنها الفرقة الناجية وبذلك كما يقول المثل الشعبي في مصر المحروسة رقص على السلم فلا الذين في الدور العلوي رأوه ولا الذين في أسفل شاهدوه.

وقواعد مناهج البحث العلمي تحتم عليه أن يزبر «يسطّر» أنه المصحف الإمام لا مصحف عثمان.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ١، ص١٨٢ .

(٢) القرآن وعلومه في مصر، من ٢٠هـ إلى ٣٠٨هـ، للدكتور عبدالله خورشيد البري، ص٥٠، الطبعة الأولى ١٩٧٠م، دار المعارف بمصر.

(٣) المصدر ذاته ص٦٢.

استقراء لسيرة عمرو بن العاص
باع دينه بعرض من الدنيا
أكبر الخيانات في التاريخ الإسلامي

في الرجال والنسوان للعظمة دلائل كثيرة منها أن من يناوئونهم بطريق الحتم واللزوم لا بد أن يتسموا بالسفولة والفسولة (السفالة) وهما تجمعان حزمة من الصفات الكريهة مثل الضمير المُبَنّج (المخدر) والوجدان المريض والشعور الجافي والإحساس الغليظ.

ولا صلة لهذه النعوت المرذولة بالملكات العقلية، بمعنى أنه ليس من اللازم أن يتفقر صاحبها إلى الذكاء أو يتفقد الدهاوة أو تعوزه الزكاءة.

بل إنه ربما يستعين بهذه الأخيرة لخدمة أهدافه التي تحُضّه عليها نفسيته العليلة.

هذا الجانب المثلوم في هذه النوعية من البشر منشؤه - باستقراء سيرة حياة بعض منهم - ومردّه إلى الظروف التي مرّ بها والبيئة التي عاش فيها والوسط الذي شبّ فيه بل والبيت الذي رُبيّ بين جنباته.

اذ (لا شك أن البيئة والاجواء العائلية التي ينشأ فيها الإنسان تلعب دوراً أساسياً في بناء شخصيته فهي التي تغرس في نفسه قيمتها وأفكارها وتربيه على سلوكياتها وعاداتها)[1].

---

(١) (المرأة العظيمة، قراءة في حياة السيدة زينب بنت عليّ) للشيخ حسن موسى الصفار، ص٤٩، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م، مؤسسة الانتشار العربي.

إن من أشهر الذين بارزوا الإمام عليّ - رض - بالعداوة وأظهروا له الشحناء وبادؤوه بالكراهية: عمرو بن العاص بن وائل السهمي.

(ثم لم يزل عمرو بغير إمرة إلى أن كانت الفتنة بين عليّ ومعاوية، فلحق بمعاوية فكان معه يدبر أمره في الحرب إلى أن جرى أمر الحَكَمَيْن ثم سار في جيش جهّزه معاوية إلى مصر فوليها لمعاوية)(١).

وباكورة استعانة الطليق ابن الطليق نعني معاوية بن أبي سفيان بعمرو بن العاص، يحكيها لنا أحمد بن أبي يعقوب في تاريخه وموجزها أن الأول بعث إليه برسالة مع وردان يستقدمه إليه، بداهة كيما يستعين بدهائه، فاستشار ولديه محمداً وعبدالله فأشار عليه الأخير بعدم المسير بيد أنه رفض فقال ابنه: بال الشيخ على عقبيه وباع دينه بدنياه. ومن الطريف أن الرجل الذي أرسله إليه معاوية نصحه بأن يقيم في منزله ولكن ابن العاص اختار العاجلة وانحاز إلى الباطل وسار إلى الطليق معاوية(٢)، ثم يحكي لنا اليعقوبي الخديعة الدينية التي لم يتورع عمرو بن العاص عن ارتكابها غير عابئ بأي قيم أخلاقية في واقعة التحكيم.

---

(١) (الإصابة في تمييز الصحابة) لقاضي القضاة شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، المجلد الخامس، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ص٦٠، د.ت، الناشر: دار الغد العربي بمصر.

(٢) بتصرف من (تاريخ اليعقوبي)، المجلد الثاني، ص١٨٤-١٨٥، د.ت، دار صادر، بيروت.

... فقال (أي لأبي موسى الأشعري) فاخلع علياً وأخلع أنا معاوية ويختار المسلمون. وقدّم عمرو أبا موسى إلى المنبر فلما رآه عبدالله بن عباس قام إلى عبدالله بن قيس (أبي موسى الأشعري) فدنا منه، فقال إن كان عمرو فارقك على شيء، فقدّمه قبلك فإنه غُدر، فقال: لا قد اتفقنا على أمر، فصعد المنبر، فخلع علياً ثم صعد عمرو بن العاص، فقال: قد ثبّت معاوية كما أثبت خاتمي هذا في يدي.

فصاح بأبي موسى: غدرت يا منافق، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنك مثل الحمار يحمل أسفاراً)[١]. هكذا قارف عمرو بن العاص خيانة من أكبر الخيانات في التاريخ الإسلامي، ومكيدة من أبشع المكائد ونقضاً للعهد في أحطّ صورة، بأعصاب باردة ودون أن يطرف له جفن.

وكافأه ابن آكلة المرار (هند) على غدرته بأن وضع ولاية مصر في فمه لقمة سائغة ونذكّر أنه هو الذي غزاها عُنوة في عهد العدويّ ابن الخطاب وفعل فيها الأفاعيل هو وجنوده.

وهكذا صدق فيه قول ابنه عبدالله: باع دينه بعرض من الدنيا.

وتابع دناءاته حتى مع سيده معاوية، وإذ إننا لسنا بصدد قصّ سيرته العكرة فإننا نكتفي بما سطّرناه للإبانة عن نفسيته الملتاثة.

ذلك أن عمرو بن العاص لو لم يتموضع في الصف المحارب لأمير المؤمنين أبي الحسنين - نور الله مرقده الطاهر - لغدا الأمر

(١) المصدر السابق، ص١٩٠ .

غريباً بل وغير منطقي، لأن صاحب التكوين/النفسي الشائه من المستحيل عليه أن يسير تحت راية كتيبة الحق ولا أن يتعرف على سيماء العظمة ولا أن يدرك مخايل السمو ولا أن يفقه شارات الامتياز.

لماذا؟

نعود بالقارئ إلى فاتحة المقال وهي أن الجو العائلي والوسط والبيئة التي يترعرع فيها الإنسان كلها تترك بصماتها على سلوكياته.

فإذا طبقنا هذا المقياس الدقيق على ابن العاص نجد مصداقيته كاملة. فأمه كما جاء على لسانه (سلمى بنت حرملة تلقب (النابغة) من بني عنزة ثم أحد بني عجلان، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبدالله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل)[1]. إذن هي سبية مرت قبل أبيه على اثنين، ومما له دلالة في هذه الخصوصية هو أن الأخير منهما (ابن جدعان) من أكبر المرابين في مكة ومن أهم موارد دخله عرق العبدان (بضم العين أي العبيد) وما تدره عليه أفخاذ الجواري/البوائس. وهو من بني تيم رهط عتيق بن أبي قحافة. واسم الأم سلمى، ولكنها لقبت بـ(النابغة) ومعلوم أن اللقب عادة ما يجيء وصفاً لأحوال حامله رجلاً أو مرة.

(١) (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر ٣٦٨/٤٦٣هـ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المجلد الخامس، ص٢٥٢، د.ت، دار الغد العربي، مصر.

وإذا رجعنا للمعاجم نفتش عن ايحاءاته كُشف لنا عن العلّة الكامنة وراء لصوقه بأم عمرو: (..ومن المجاز: نبغ الشر: فشا وظهر ونبع منهم النفاق إذا خفوا في الفتنة)[١].

أما الفيروز آبادي فيوضح الجانب المادي:

رأسه ثار منه النُباغة ككُناسة.. وعلينا فهم نباغة كشدادة خرجت منهم خوارج، والوعاء بالدقيق تطاير من خصائصه ما دَقّ، ومَحَجّة (أي طريق) نباغة أي يثور ترابها)[٢].

إن اللقب الذي اشتهرت به أم الغادر الخدّاع حتى غطّى على اسمها ينفح دلالات شريرة ويقدم معطيات شيطانية، ويمنح معاني تنم عن الشراسة. تلك صورة الأم التي ربّته وغذّته بلبانها وتولت تنشئته.

أما أبوه العاص بن وائل السهمي فمن الطبيعي أو البديهي أن يجيء كفءٌ (للنابغة) فإن الطيور على أشكالها تقع، كيف لا؟

ألم يرد في الذكر الحكيم ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾[٣]. فهو بدء الحَكْي ديوث يسرّح (كلمة عربية صحيحة) الإماء (الجواري) ليحترفن العهورة ويحصل هو على كسبهن شأنه شأن التيميّ عبدالله بن جدعان.

---

(١) (أساس البلاغة) لجار الله الزمخشري، ص٤١٦، الجزء الثاني، طبعة ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) (القاموس المحيط)، الجزء الثالث، طبعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٦ .

بل إنه فعل ما هو أوعر في طريق الدنس والعيهرة إذ تملك واحدة من القِحاب اللائي عرفن بـ(صاحبات الرايات الحمراء) وهن أشهر من مارس البغاء علانية وعلى رؤوس الأشهاد في (قرية القداسة) جهاراً ونهاراً.

(﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾[١]. قال عكرمة نزلت في نساء بغايا ومنهن تسع صواحب رايات، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها منهن وحُية القبطية جارية العاص بن وائل..)[٢].

ولم يكتف والد عمرو بالدياثة والعيش على ما يحصله عن عرق أوراك الجواري التعيسات بل هو أحد صناديد كفار قريش الذين تحدوا (سيد ولد آدم) وهو يبشّر بدعوته المباركة:

(﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾[٣]، قيل نزلت في أبيّ بن خلف، أتى إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتّه بين يديه ثم ذَرّه في الريح فقال يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ فقال رسول الله ﷺ: الله يحييه ثم يميتك ثم يدخلك النار - وقيل إن العاص بن وائل كان القائل ذلك وهو أرجح)[٤].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣.

(٢) (أسباب النزول) لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت٤٦٨، ص٢١١، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي بمصر.

(٣) سورة يس، الآية: ٧٨.

(٤) (المختصر في تفسير القرآن)، مختصر من تفسير الإمام الطبري لابن صمادح التجيبي، وأمهات كتب التفسير، تحقيق د. عدنان زرزور، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

توصيف سريع لا يسمح الحيز المتاح بأكثر منه لعمرو بن العاص الذي تولى كبر المكيدة التي حظيت بسهم وافر في مضادة الإمام علي وأدت إلى الانشقاق في صفوف جنده وما تلاها من تداعيات خطيرة وآثار فادحة، ولأبويه اللذين غرزا فيه مبادئ الانحطاط والتدني والحقارة.

فليس من المستغرب أن يثبت بسلوكه الشائن أنه ابن النابغة والديوث. ومن ثم فلا نتوقع منه أن يقف في صف الحق ضد الباطل. ولا ننتظر منه أن يفطن إلى عظمة أمير المؤمنين. بل العكس هوالصحيح فانحيازه ومن على شاكلته إلى جانب الطليق ابن هند من أقوى أدلة الثبوت على ذلك السمو الذي لا ترقى مداركهم إلى الاحاطة به.

آراء ومواقف -١-
عن الصحابة والمرأة

محمد والصحابة

أولئك الرجال والنسوان الذين آزروا محمداً وهو يقوم بثورته الرائعة في منطقة الحجاز من شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي وسمعوه وهو يتلو عليهم القرآن للمرة الأولى.

وأول من شافههم بأحاديثه وعاين تقريراته الذين استجابوا لدعوته وآمنوا بالديانة التي بشّر بها وعاضدوه على نشرها وانخرطوا في السرايا التي كوّنها ليؤسس دولة قريش حلم آبائه وأجداده بدءاً من جده الأعلى قصي. وعاشوا معه منذ اللحظة التي أبلغهم فيها أنه نبي حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

أولئك هم الفاعلون الاجتماعيون في التجربة الرائدة التي قادها محمد آنذاك والتي كانت ولا زالت من أخطر التجارب التي يعرفها التاريخ الوسيط والحديث ومن أعمقها وأغناها، ويرجع ذلك بادئ بدء إلى أن الذي فجّرها شخص فرد لم يسانده حزب أو جماعة أو أياة. ولا قبيلة ولا رهط ولا فخذ ولا قاعدة شعبية ولم تكن بيده سلطة أو وظيفة أو ثروة... بل العكس هو الصحيح وقف ضده ملأ البلدة وصناديد القبيلة وأصحاب التجارب وحائزو الثروات أما الأرذال فكانوا أضعف من أن يناصروه. في الثورات

السوابق كان الزعيم يؤسس القاعدة ويربّي الكوادر ويؤلف الحرس ويصف الأعوان ويرص المؤيدين وينشئ الخلايا ويجنّد الأنصار..الخ، ثم يعلن الثورة.

ولكن محمداً فعل العكس فلق الثورة وصدع بالدعوة وبشّر بالديانة بمفرده وأول من آمن به زوجه خديجة وعبده (مولاه فيما بعد) زيد وابن عمه وربيّبه عليّ، ماذا يجدي هؤلاء في مقابل الطواغيت، طواغيت السلطة والمال والجاه والتجارة والعقائد والعادات والتقاليد البالية جميعها ولكنها راسخة رسوخ الجبال بيد أنه كان واثقاً من نفسه ثقة لا تحدّها حدود ومن تفوقه على غيره من البشر جميعهم وتميزه عليهم وتفرّده وعبقريته..الخ.

وكان مؤمناً إيماناً ثابتاً بنجاح ثورته وفلاح دعوته، وفلج قضيته على كل العوائق والعقبات والمثبطات ولم يتطرّق إليه مثقال ذرّة من شك أن الديانة التي يحثّ الناس على اعتناقها أسمى من كل العقائد والملل والنحل والمذاهب التي كانت تموج بها مدينة القداسة (مكة) خاصة ومنطقة الحجاز عامة وأنها ستعلو عليها وتسيطر وتكون لها الهيمنة والغلبة وكان يرى في أشد حالات الضيق وأكثر أيام العذاب وأحلك ليالي المعاناة معالم دولة قريش أمنية الأسلاف رأي العين وكان يرسم حدودها للمضطهدين والمقهورين من أتباعه في تلك الأيام الأشد سواداً من قرن الخروب. كان يقول لهم إن الراعي سوف يسير من مكة إلى صنعاء لا يخاف إلاّ الله ثم الذئب على غنمه ويحضّهم على الصبر والتحمّل وكانت تلك هي حدود دولته التي سوف يقيمها منفّذاً بذلك ما بدأه أجداده، وفعلاً

تحققت في حياته الحدود عينها ثم وسعها خلفاؤه إلى آفاق لم تكن تخطر على بال نقول إن محمداً فعل العكس بعد أن أعلن الثورة وأذاع الدعوة أخذ يربّي الصحاب والأتباع وكانت الخليّة الأولى هي التي تجمعت في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي خلال أقل من ربع قرن ارتفع عدد الصحاب مما لا يجاوز أصابع اليد الواحدة حتى أن بعضهم كان يفتخر ويقول: كنت ربع الإسلام أو خمسه إلى أكثر من مائة ألف وأربعة عشر ألفاً في حجة الوداع ومحمد الذي كان يشكو إلى الله هوان حاله على الناس عندما سلّط عليه صناديد ثقيف بالطائف سفهاءهم وصبيانهم حتى أدموا قدميه أصبح سيد وديّان العرب وحاكم الجزيرة العربية من دون مدافع وأقبلت الوفود من كل صوب وحدب تبايعه وقبّل رؤساؤها قدميه ورجليه تعبيراً عن الانقياد والخضوع وتسليم الزمام.

أما الصحاب الذين كانوا أراذل ومستضعفين يعذبون أقسى عذاب تربّعوا على قمّة الهرم وصاروا أعيان المجتمع ونجومه وسوف نرى خالد بن الوليد المخزومي السيد الماجد يسترضي عمّار بن ياسر مولى رهطه (بني مخزوم) والذي كانوا يربطون الأحجار على بطونهم من الجوع والمسغبة يتحولون إلى أثرياء يبنون الدور والقصور وينكحون العدد من الحرائر والإماء الذين كانوا لا يجدون في شبابهم سوى المسجد موئلاً وملاذاً يقنون الجواري الروميات وغيرهن ويحلّوهن بالذهب ويلبسونهن ملابس الحرات والذين كانوا يرعون الغنم والماعز والتيوس غدوا حكاماً وولاة..الخ.

نقلة أو نقلات تدير الرؤوس ومن النادر أن تطالع لها مثيلاً في كتاب التاريخ الطويل العريض.

أولئك الصحابة كانوا تشكيلة بالغة التعقيد والتنوّع والتصنيف:

فيهم العربي والأعجمي، الغني والمملق، الشريف والوضيع، الحسيب النسيب والمولى، السيد والعبد، الشيخ والشاب، الوسيم القسيم والدميم القبيح، الذكي اللماح ومتوسط الفهم، الشجاع ومَن يعوزه الإقدام[1]، الكريم السخي وصاحب الدوانق، العزوف عن معاشرة النساء ومن نكح عشرين حرة خلاف ملك اليمن من كان لا يجد غضاضة في أن تصرف عليه زوجته، ومن يعمل في الأعمال الشاقة حتى يحصل على قوته وقوت عياله، ومن كان سادن صنم وحنيفياً ويهودياً ونصرانياً وقبطياً وعابد وثن، من كان خطيباً بليغاً مفوهاً ومن كان يعجزه النطق بعبارة واحدة.، من كان شاعراً مفلقاً لبيباً ومن كان عريض القفا، من كان أبيض زاهر اللون شامخ الأنف ومن كان أسود أفطس، مجموعة بالغة الاختلاف والتباين في كل شيء.

والصاحبات لم يكن أقل تغايراً فيما بينهن عن الأصحاب، ولا ضرورة لأن نكرر وجوه الاختلاف فهي نفسها التي ذكرناها في حق الصحاب، مع الوضع في الاعتبار الفروق الطبيعة بين الرجال والنسوة.

---

(١) حسان بن ثابت لم يشهد معركة واحدة، ودعته صفية عمة محمد في وقعة الخندق إلى قتل يهودي كان يحوم حول الحصن الذي وضع فيه مع النساء والذراري، فقال لها: يا ابنة عبد المطلب، أنت تعرفين أنني لست أهلاً لذلك، فشدّت مئزرها وأخذت عموداً وقتلته.

أولئك الصحاب والصواحب كتبت عنهم مئات من المؤلفات في القديم والحديث بعضها تناولهم جميعهم في محاولة رائعة لحصرهم وإحصائهم والبعض الآخر خصّ طائفة منهم بالدراسة مثل العشرة المبشّرين بالجنة ومنها ما اكتفى بفند واحد بذاته.

ولكن التراثية منها أولت الجانب الروحي أو الديني اهتمامها وبالأخص روايتهم لأحاديث محمد أو سننه العملية والتقريرية أو إشراكهم معه في غزواته أو قيامهم بالسرايا والبعوث والمأموريات الخاصة التي كلّفهم بها وهي متعددة، أما المؤلفون المحدثون فقد سلّطوا الأنوار الكاشفة، وإن شئت الدقة قلت المبهرة، على الجوانب المضيئة فحسب لدى الصاحب أو الصاحبة... وهذا منهج غير موضوعي ومجاف للروح العلمية لأن أولئك الصحاب والصواحب بشر وبنص حديث محمد «كل بني آدم خطّاء» (كثير الخطأ) وهم أنفسهم لم يدّعوا لذواتهم القداسة أو العصمة ومحمد أخبرنا في أكثر من حديث أن منهم من سوف يغيّر ويبدّل وعندما سيلقاه في الدار الآخر سيقول له سحقاً والسحق هو أشد البعد.

ولسنا بصدد تقييم كتابات السلف أو الخلف ولكننا نذكر لنؤكد أنه حتى الآن لم يكتب أحد عن أولئك الصحبة من الناحية الناسوتية ونعني بها حياتهم الدنيوية: علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الغير، موقفهم من المال، نكاحهم، ملابسهم زينتهم، معاملتهم لزوجاتهم، أي تصرفاتهم وسلوكياتهم كبشر، كناس من الناس وهذا أمر لازم أشد ما يكون اللزوم لتقييم التجربة التي كانوا هم

أعمدتها والفاعلون الاجتماعيون فيها وهم الذين وضعوها على أرض الواقع وهي كما قلنا من أخطر التجارب التاريخية منذ العصر الوسيط.. إن تمحيص ثورة محمد المجيدة ودراسة التجربة الفاذة التي حدثت في يثرب: المدينة منذ نزوحه (هجرته) والصحاب والصواحب حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً واستمرارها بعد وفاته على أيدي الصحبة ومعرفة دقائقها وغربلة وقائعها غربلة لا تدع شاردة ولا واردة منها ووضعها تحت المجهر أمر ضروري ومُلحّ وعاجل. وتأخر قروناً عديدة وكان يتعين أن ينجز منذ زمن سحيق لفهم العديد من الأمور وفي مقدمتها (النصوص) لأن أولئك الأصحاب هم أول من تلقاها من محمد وأول من شافههم وخاطبهم بها ووجّهها إليهم وبعد ذلك حملوها إلى التابعين وتابعي التابعين وهكذا.

ولا ندري كيف نهتم بـ(المحمول) وهو (النصوص) هذا الاهتمام الذي لم تحظ به (نصوص) في أي ديانة أو عقيدة أو نظرية أو أيديولوجية ولا يُلفت إلى (الحامل) أو الناقل أو الراوي.

ولا ينتصب رد اعتراضاً على ذلك بأن كتب علوم الحديث على وجه الخصوص أولت عناية فائقة لأحوال الرواة جميعهم فإن تلك المؤلفات ونحن نقدّرها تقديراً يفوق الوصف ونحيي مصنفيها تحية حارة قد حصرت نفسها في دائرة ضيّقة وهي العدالة وبعض الصفات التي يتوجب توافرها في راوي الأحاديث وليس إلى هذا قصدت بل رميت إلى لزوم معرفة أحوال الصحبة والصواحب في كل الأمور لتقدير روايتهم ونقلهم (النصوص) التقدير الموضوعي

السديد بخلاف الاقتصار على جوانب محددة غاية التحديد ومحصورة أشد الحصر عن صفات الراوي أو الناقل لنشرح ما نعنيه وذلك بضرب مثلين:

الأول: عندما نوضح أن عبدالله بن مسعود كان في بدء حاله يعيش مما تتصدّق زوجته به عليه وأولاده ثم في الختام ينتقل إلى طبقة ملاك الضياع.

الآخر: لما نذكر في سيرة أبي هريرة أنه كان في المفتتح يرافق محمداً على شبع بطنه ثم يعمل في خدمة بسرة بنت غزوان أخت الأمير عتبة بن غزوان ثم ينقلب إلى زوج لها ويساكنها في قصرها ومن أحداث حياته الهامة أن عمر بن الخطاب استعمله على إحدى الولايات ثم شاطره ماله. لما نفعل ذلك يتوجب على الكافة أن تدرك أن (النصوص) التي حملها هذان الصاحبان ينبغي أن يكون لها تقدير مخالف.

كما أن تحليل سلوكيات الصحاب والصاحبات تحليلاً موضوعياً صارماً لا مجال فيه للعواطف الفجة أو المشاعر المسبقة سيضع في دائرة الضوء تلك التجربة الفريدة في حجمها الصحيح من دون تهوين أو تهويل، ما يمكّننا من الحكم العادل الدقيق على صورتها المصطنعة والمزوقة التي يرسمها لها البعض ونحن على يقين أنه لم يمعن النظر فيها لا في كل نواحيها بل ولا حتى في بعضها إنما خطف خبراً من هنا وآخر من هناك وعمّمه ووسّع دائرته وغطّى به كل المساحة.

وأهمية ما نهدف إليه لا مجرد إثبات أن إعادة التجربة مستحيل بل إن التجربة في ذاتها كانت بشرية لا هي معصومة ولا مقدسة.

ليس ذلك فحسب:

إن تجلية التجربة بالطريقة الموضوعية التي سلكناها سيحقق هدفاً عزيز المنال وهو ربط (النصوص) بموجبات ذلك المجتمع وإكراهات تلك البيئة ومن سبقنا في الحديث عن هذه النقطة بالغة الحساسية كان يكتفي بالقول المرسل والعبارة الفضفاضة ولكننا وضعنا النقط فوق الحروف ورسمنا للقارئ (بانوراما) لذلك المجتمع وتلك البيئة اللذين في باطن أحشائهما تخلقت (النصوص) ثم ولدت.

وهذا يترتّب نتيجة منطقية على قدر وفير من الخطر وهي وجوب ربط (النصوص) بإلزامات ذلك المجتمع وضغوطات تلك البيئة لكي يتحقق هدفان رئيسان:

رفع الحرج عن المخاطبين بالنصوص لأن الدين لم يشرع للحرج وهو ما ردّده القرآن مراراً.

ضرورة تطوير تأويل النصوص (لم نقل تطوير النصوص حتى نقطع السبيل على المتنطعين) التأويل الذي يوائم عصرنا ويوائم متغيراته ويواكب مستجداته وفي هذا حفظ (لمكانة النصوص وقدرها) ورفع العنت عمن يتلقونها.

إن قانون الثورات صارم لا تفلت من أحكامه ولا تشذ عن قواعده ثورة:

في رحم الثورة يتخلق نقيضها ولا يتنبه الثوار الأوائل (الحرس القديم) إليه ولكن الانتهازيين والانتفاعيين والحسابيين والذين التقوا بركب الثورة فيه إذ يهدئ من سيره وهو يصل إلى نهاية الشوط يدركونه بل إنهم من أبرز العوامل المؤثرة في تفعيله ومن ثم يصبحون أقدر من غيرهم على الإمساك بقرونه والسيطرة عليه وتطويعه لمصالحهم ومنافعهم وشيئاً فشيئاً يزيحون من طريقهم صانعي الثورة وأخلص أعوان زعيمها أولئك الذين دفعوا من أبشارهم وأعمارهم الثمن الباهظ... وفجأة يرى (الحرس القديم) نفسه مهمشاً ومبعداً ومنفيّاً ومتغرباً..الخ، في حين أن الانتفاعيين والانتهازيين تربعوا على القمة وجلسوا في الصدارة يتمتعون بنتائج الثورة الشهية وقطوفها الدانية وثمارها اللذيذة:

السلطة والأموال بمختلف ضروبها والجاه والنفوذ..الخ، ومن ثم فهو أمر طبيعي للغاية في ثورة محمد كما سيرى القارئ بعد قليل أن الطلقاء والطرداء واللعناء من أمثال معاوية والحكم وابنه مروان والوليد بن عقبة بن أبي معيط قد غدوا حكاماً وولاة وتمتعوا بالخيرات الحسان من كل نوع... في حين أن أبا ذر مات شريداً غريباً منفياً في الربذة.

وعبدالله بن مسعود ضُرب بالسياط وجُرّ من رجليه حتى أُخرج من المسجد بعد أن كُسر له ضلعان وحُرم من عطائه.

وأسامة بن زيد (الحبيب ابن الحبيب) يسخر معاوية من أمه التي كانت أثيرة لدى محمد قائد الثورة ومروان بن الحكم يسبه سباً قبيحاً أمام قبر محمد.

والحسن بن علي حفيد القائد يموت مسموماً ويزيد بن معاوية الخليع الماجن السكّير الخمّير يتولى الخلافة. هذه مجرد أمثلة تؤكد أن موجبات قانون الثورات حديدة كالسيف الصقيل تطول كل الثورات.

والذين يفسرون سيطرة آل أبي معيط وبني أمية على مقدرات الثورة المجيدة التي قام بها محمد تفسيرات ما ورائية آن لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويقلعوا عن منهجهم المغلوط ويذروا تأويلاتهم اللاعقلانية ولعل قراءة كتابنا هذا تعينهم على ذلك فإذا فعلوا ولو أننا نشك فيه يتحقق هدف عزيز من وراء تأليفه.

في كتابنا (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية) التي أصدرت طبعته الثانية عام ١٩٩٨ مؤسسة الانتشار العربي ودار سينا للنشر أومأت في الإهداء إلى ضرورة كتابة التاريخ العربي الإسلامي كتابة موضوعية (بعيدة عن الحواجب التي تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير والماورائيات..الخ) إذ إن اعتقادي الراسخ ويقيني الثابت أن التاريخ العربي الإسلامي (وأنا هنا أقصد الكتابات التاريخية الحديثة من مؤلفات ورسائل جامعية وأبحاث..الخ) لم يكتب الكتابة العلمية النزيهة.

إن السلف من مصنفي الكتب التاريخية مثل: البلاذري والمسعودي والطبري والدينوري واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمقريزي وابن خلدون..الخ، أبرأوا ذمّتهم وأرضوا ضميرهم وسطّروا ما وصل إلى علمهم من أخبار ووقائع ونوازل وأحداث، بيد أننا لا ننكر أن عدداً من أولئك المؤرخين كانت عينه على السلطة

الحاكمة وحريصاً على رضاها، ولكن مع ذلك موسوعاتهم حفلت بالعديد، ما ساعد على تصوّر أحوال السلف تصويراً بالغ الدقة شديد الإحكام فقد يحتاج المرء إلى عين يقظة للقراءة وعقل ناقد عند الاطلاع. ثم جاء الخلف أو المحدثون من المؤرخين والأكاديميين والجامعيين والدارسين وغطرشوا وتعاموا عمّا قد يظنون مجرد ظن أو يتخيّلوا محض تخيل أنه يمس بالهالة القدسانية التي يضعونها فوق رؤوس السلف الصالح ومن ثم أسقطوها من حساباتهم وهذا مسلك معيب والدوافع في ذلك لا تخفى على فطنة القارئ الذي ومما يضاعف الأسى أن يغدو هو الاتجاه النافق الرائج في الجماعات وعلى وجه الدقّة في أقسام التاريخ في كليات الآداب على أيدي الأساتذة وطلاب الدراسات العليا (الذين سيصبحون فيما بعد أساتذة) ومن ثم فلا تقرأ في محرراتهم سوى الجانب التفخيمي، التعظيمي، التبجيلي..الخ، ما يفقدها بأنواعها المختلفة أي قيمة علمية.

نحن نفهم أن يجيء ذلك في كتاب يطرح في السوق للقارئ العام أو حتى للقارئ المثقف، أما أن يتم هذا التزوير ولا أرى تقييماً له خلاف ذلك في الرسائل الجامعية وأطروحات الماجستير والدكتوراه فهذه هي الطامة الكبرى وبهذا الصنيع تفقد الجامعة كينونتها وتتحول إلى أي شيء آخر خلاف الجامعة التي يلزم أن تكون هي معقل البحث العلمي الحر الذي لا يخضع لأي مؤثرات ولا يعبأ بأي ضغوط.

وإذ نردّد دائماً أن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر فإن دعوتنا لإعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي تصبح صيحة في الهواء إذا لم نبادر نحن من جانبنا بترجمة هذه الدعوة عملياً وهذا ما قمنا به في هذا الكتاب على قدر الجهد والطاقة. نشق بذلك الطريق ونفتح الباب لتسير الأجيال القوادم على الدرب وتكمل المسيرة غير عابئة بأي اعتبار لأن أمانة العلم فوق كل شيء.

هناك خطأ منهجي آخر يرتكبه المؤرخون سواء كانوا محترفين أو هواة، أكاديميين أم غير ذلك وهم يؤلفون في التاريخ العربي الإسلامي خاصة وهم يتناولون العهدين المحمدي والخليفي وهو أنهم يستندون إلى كتب السّير والتواريخ، ويعرضون عن غيرها.

ومن المعلوم أن (السِّير) على وجه الخصوص ثم من بعدها (التواريخ) بدأت مختلطة بالأحاديث بل غالبية العلوم الإسلامية على وجه العموم بدأت بـ(الأحاديث) مثل تفسير القرآن المسمى (التفسير المأثور) وأشهر كتبه (جامع البيان) للقرطبي، (بحر العلوم) للسمرقندي، (معالم التنزيل) للبغوي، (المحرر الوجيز) لابن عطية، (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير..الخ.

وعلوم أخرى غير كتب التفسير تعتمد على الأحاديث مثل (أسباب النزول) و(الناسخ والمنسوخ).

أما الفقه فإن (الأحاديث) تشكل في بنائه وهيكله العمود الفقري وكثير من رؤساء المذاهب كان يصرّح: الحديث مذهبي وغيرهم كان يقول: إذا جاءك الحديث (أي المخالف لما أفتيت به) فاضرب بمذهبي عرض الحائط وهناك من المذاهب الفقهية ما

يتمحور على الحديث وبضاعته من الرأي كانت وشلة (قليلة) مثل المذهب الحنبلي بل إن مؤسسه وأصحابه وتلاميذه إجماعهم منعقد على أن القياس في الدين باطل والرأي أبطل منه ولغلبة الحديث على مذهب أحمد بن حنبل لا يعده البعض فقيهاً بل محدثاً وهذا في رأينا شطط ومبالغة.

ونحن نقول ذلك لنلفت النظر إلى أن الأحاديث أو السنن قد انضوت على كم بالغ الوفر من الوقائع والأخبار والنوازل..الخ، والحق أن عجبي لا ينقض البتة كيف انصرف المؤرخون عنها وهذا هو الخطأ الذي تردوا فيه جميعهم بلا استثناء وهنا لا بد أن ينتصب سؤال وجيه:

ما للمؤرخ وموسوعات الحديث: الصحاح والمسانيد والسنن والموطآت والمختارات والمصنفات والمصابيح والكنوز والجوامع والفتوح والمجامع والزوائد والمستدركات والمعاجم..الخ.

والجواب:

هذا سؤال رغم وجاهته الظاهرة فإنه يدلّ على قصور في النظر وفسولة في التفكير ورداءة في الرأي، لأننا لا نطلب من المؤرخ أن يقرأ كتب الحديث ليستخرج منها أحكاماً فقهية فهذا عمل الفقيه أو يستخلص منها فتاوى فهذه وظيفة المفتي ولكن لأنها تعج بالحوادث التاريخية التي أغفلتها كتب السّير والتواريخ أو التفتت عنها أو لإلقاء الضوء على الوقائع التاريخية لتحليلها الموضوعي الصحيح بل إننا نطلب من علماء الاجتماع الديني والانثربولوجيا قراءة كتب الأحاديث وموسوعات السنن لأن فيها كنوزاً عن العادات والتقاليد والأنساق الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك:

في الميلاد والختان والبلوغ والزواج والوفاة (طقوس الانتقال) والطلاق والعتاق والخلع وكيفية قضاء العدة وفي تملّك الأرض التي يهبها ولي الأمر وفي المساقاة والمزارعة وأنواع التجارات والملابس والعطور والزينة..الخ، وإذا التفت الاجتماعيون الدينيون والأنثروبولوجيون إلى ذلك كله ودرسوه وكتبوا عنه أبحاثاً رصينة جادة ساعد ذلك على فهم النصوص وتأويلها وبالتالي عاون على تطوير تفسيرها (لم نقل تطويرها) واستخراج المعاني والقيم منها التي تصلح لوقتنا أو لزمننا وهكذا يفعل كل جيل.

في كتابنا هذا تفادينا هذا الخطأ المنهجي والتفتنا إلى أهمية الأحاديث والسنن ولعلنا نقول ذلك بكل تواضع نحن أول من فعل ذلك لتوصيف وتحليل أحوال الصحاب وهي تضم العصرين المحمدي والخليفي وإن تجاوزوهما قليلاً لما بعدهما تتبعاً لسلوكيات الصحبة الذين طالت أعمارهم بعد ذلك.

وقد التفتنا إلى كتب التاريخ الإسلامي:

الطبري، الدينوري، البلاذري، المسعودي، اليعقوبي، المقريزي... وغيرهم وأوليناهم ما تستحقه من عناية وكذلك كتب السيرة النبوية وأخذنا منها الكثير رغم أننا كما كرّرنا لسنا بصدد تأريخ للصحاب والصواحب بيد أننا لم نعتمد عليها أو بتعبير أدق لم نقتصر عليها وحدها بل استندنا إلى غيرها من غالبية كتب العلوم الإسلامية ربما باستثناء أصول الفقه وأصول الدين أو علم الكلام لأنها تتناول مسائل تجريدية وفروضاً نظرية..الخ.

وبذلك كان عمدتنا في الدراسة والبحث عدد وفير من كتب تفسير القرآن وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وموسوعات الحديث: الصحاح وغيرها ومناسبات ورود الحديث والفقه والخراج والأموال والأحكام السلطانية وأحوال الصحابة والمناقب والطبقات والأنساب والعواصم..الخ، وجميعها كتب تراثية وقد تعمّدنا أن تكون كلها كذلك لكي نقطع السبيل على أي معترض وحرصنا الحرص كله على أن تجيء الأخبار والآثار والنوازل والوقائع والأحداث موثقة أشد ما يجيء التوثيق لأن بعضاً ولا نكون مغالين إذا قلنا إن كثيراً منها سوف يصدم القارئ صدمة عنيفة قد تفقده توازنه لماذا؟

لأن القارئ عاش طوال عمره وهو يطالع صورة مزوّقة مبرقشة جهدت فرق التعظيم والتفخيم والتبجيل على تزيينها وتجميلها وتحسينها عن طريق الانتقاء والاختيار والتلفيق والتوفيق بين المتناقضات وإخفاء الحقائق الثابتة التي تناقض هذه الصورة المصنوعة والمصطنعة والذي لا نشك فيه أن القارئ سوف يسأل: هل كان أصحاب وجماعات التفخيم والتعظيم والتمجيد قد قرأوا ما كتب عنهم ومع ذلك قدّموهم للناس بتلك الهيئة المغايرة؟

لا شك أن الإجابة بالإيجاب؟

إذن كيف طاوعهم ضميرهم وأمانة العلم التي يجب أن يتحلوا بها أن يغضّوا الطرف عنها؟

الأسباب كثيرة وإذ نحن دائماً نفترض حسن النية وسلامة الطويّة فنذهب إلى أن العاطفة الدينية الجياشة كانت وراء ذلك كله ولكن مع جيشانها فإنها بميزان صحيح الإسلام باطلة وفاسدة إذ

إن محمداً نفسه توقّع أو قلّ تنبأ أن عدداً من صحبه سوف يحيد عن طريقه ولذا فعندما سيلقاه في الدار الآخرة سيشيح عنه بوجهه ويقول له سحقاً.

هذه واحدة، أما الأخرى فإن الصحب أنفسهم كانوا لا يدّعون القداسة ولا حتى العصمة، بل إن من أكابرهم من صرّح من دون جمجمة أن له شيطاناً يعتريه وانتقد بعضهم بعضاً علانية وعلى رؤوس الأشهاد بل سبّ بعضهم بعضاً على أعواد المنابر، ودعك مما يقوله ابن العربي صاحب «العواصم من القواصم» من أن ذلك جائز لهم ومحرم على غيرهم إذ لا سند له في هذا الادعاء من (النصوص) إلاّ بليٍّ أعناقها وعبر باب التمحل.

وقارئ هذا الكتاب سوف يطالع منهجاً جديداً اتبع الموضوعية الصارمة ونحّى عن نفسه كل العوائق التي تحول دونه ونحن نرجّح أن الانتظار طال بالقارئ له ولأمثاله ممن سيسير على دربه حتى يكتب التاريخ العربي الإسلامي كتابة علمية صحيحة.

بقيت كلمة خاتمة وهي أن هذا الكتاب بأسفاره التي نأمل أن ترى النور تباعاً يدفعنا التواضع إلى أن نقرر أنه محاولة رائدة ودائماً وفي كل المجالات تتسم المحاولات الرائدة بقدر قد يكون ضئيلاً أو متوسطاً أو كبيراً من القصور، ولكن الذي لا مشاحة فيه أن للريادة شرفها الذي نرجو أن ينالنا شطر منه والله وحده ولي التوفيق.

المغيرة بن شعبة و٣٠٠ مرة [١]

المغيرة بن شعبة بن عامر من ثقيف التي مستقرها الطائف وهي قبيلة كبيرة نافست قريشاً وربطت بينهما علاقات صهر ونسب.

وعدد من أبنائها (ثقيف) لعب أدواراً متميزة في التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط.

وهو صحابي أسلم آخرة عام غزوة الخندق وأول مشاهده الحديبية - وكناه محمد ﷺ - «أبا عيسى» ولكن العدوي عمر بن الخطاب لم تعجبه هذه الكنية كعادته في الاجتراء والاقتحام غيّرها إلى (عبدالله) - ومن عادة العرب أن يحرصوا على أساميهم وكناهم إذ إنها بمثابة (الهوية) عندهم بيد أن المغيرة قبلها من عمر لأنه ولاه البصرة خلفاً لعتبة بن غزوان فماذا تساوي الكنية القديمة حتى ولو أعطاه اياها محمد ﷺ مقابل ولاية البصرة!

في حين أننا طالعنا كثيراً في السيرة المحمدية العاطرة أنه عندما يُسمي صحابياً أو يُكنيه يعتز به أو بها ويفخر ويتمسك به أو بها حتى يلقى ربه.

---

(١) المَرَة كلمة عربية صحيحة أي المرأة، وتُطلق على الزوجة، فمرة فلان أي زوجته. وفي صعيد مصر يتحول اللفظ إلى صفة تعني المرأة التامة الخَلق (بفتح الخاء).

ولعل هذا العمل يدل بذاته على المسلك البراغماتي (الذرائعي) الذي سار عليه طوال حياته.

وهناك إجماع على وصفه بالدهاء وعدّه في مقدمة دهاة العرب.

وبداهة استثمره في الحصول على منافعه وتحقيق مصالحه فهو (أول من رشي في الإسلام) والذي يلفت النظر أنه قدم الرشوة ليحظى بهدف سياسي، فقد أعطى (يرفأ) حاجب عمر عمامة لكي يدخله عليه أو يدعه يجلس خلف الباب فيراه المارة لكي يظنوا أنه من جلساء الخليفة فيكبر في عيونهم - وطرحت الرشوة ثمارها الشهية إذ انعقدت آصرة (علاقة) قوية بين الرجلين فولاّه العدويّ عمر البصرة ووقف بجانبه بل في صفه في واقعة اتهامه بالزنى وذرأ للرماد في العيون عزله منها ثم سرعان ما ولاّه الكوفة وظل بها حتى وفاة الخليفة[1].

إن الذين يكتبون سيرة العَدويّ عمر ومن على شاكلته من الخلفاء يضببّون على مثل هذه الوقائع ويقذفون بها في الظل بل يعمدون إلى التطبيل والتعظيم والتفخيم بعبارات انشائية، ما دعانا إلى المناداة بضرورة كتابة تاريخ هذه الفترة بمنهج علمي موضوعي لأنها ما زالت تُلقي بظلالها الكثيفة علينا حتى الآن.

---

(١) (تاريخ الرسل والملوك) المشهور بـ(تاريخ الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ٣١٠-٢٢٤هـ، الجزء الرابع، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، الطبقة الرابعة، ١٩٩٧م، دار المعارف بمصر.

عندما وصلت مسامع العدوي الخليفة الثاني أخبار (مغامرات) المغيرة/النسائية أرسل صحابياً آخر ليستقصي الأمر وليتولى الإمارة بعد عزله منها.

فسارع ابن شعبة إلى ممارسة اللعبة التي حوّلته من صحابي عادي إلى أمير مصر من أميز أمصار الامبراطورية الإسلامية آنذاك (البصرة) ونعني بها الرشوة - فما أن تأكد من مهمة أبي موسى الأشعري مبعوث العدوي عمر حتى أهداه (وليدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة وقال: إني قد رضيتها لك وكانت فارهة)، وهي هدية وإن شئت قلت رشوة تحلّب لها ريق الأشعري الذي ناهز وقت ذاك الخامسة والخمسين من عمره المبرور[1].

المصادر التي تناولت المغيرة بن شعبة أطبقت على وصفه بقوة البنيان ومتانة الجسد وفتل العضل. وصديقه الحميم العدويّ عمر في إحدى القعدات الخاصة داعبه: بقوله: إنك لفارغ القلب طويل الشبق ولذا فإن الأخباريين ذكروا أنه أحصن ثلاث مئة مَرَة في الإسلام.

لم تشغله موجبات الولاية ولا زوجاته الحرائر ولا جواريه عن ولعه بالنساء فانتهز فرصة تأيّم أم جميل زوجة ثقفي من قبيلته (يبدو أنه في إحدى زيارته له لمحها فأعجبته) فسعى إليها و(رافقها) وطفق يتردد عليها حتى لفتت زياراته المريبة نظر عدد

(١) (الاستيعاب في معرفة الصحابة) لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ٤٦٣-٣٦٨هـ، المجلد السادس، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، د.ت، دار الغد العربي بمصر.

من أهل البصرة فترصده ورأوه وهو يباشرها فشكوه إلى العدوي عمر فأرسل إليه الأشعري أبا موسى..الخ(١).

حقق الخليفة الثاني في الأمر وصعب عليه أن تثبت تهمة الزنى على جليسه وصديقه إذ لا جزاء لها إلا الرجم وسمع شهادة الثلاثة الأول (ومنهم صحابي) التي أكدت زنى المغيرة وهنا ضاق صدر عمر فحَمّر عينيه للشاهد الرابع وأفهمه أن مصير واحد من صحابة محمدﷺ معلّق بين شفتيه، وفهم الشاهد الرسالة فخَرْبَقَ في شهادته ورغم أنه قال:

رأيته جالساً بين رجلي امرأة فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان واستين مشكوفتين وسمعت حفزاناً شديداً.

فإن هذه العبارات لم تكف للاثبات في نظر العدوي فبرأ صديقه بل أمر بالثلاثة الأول فجلدوا الحد. أما الرابع الذي خَنَس عن قول الحق فقد منحه عن طريق أبي موسى الأشعري إحدى العُمالات مكافأة له ثم سرعان ما عَزَلَه.

هل تدرون من هو هذا الشاهد؟

إنه زياد ابن سمية الذي صار يدعى ابن أبي سفيان بعد أن استلحقه الطليق معاوية بنسب أبيه الطليق أبي سفيان لهدف سياسي - وخرج المغيرة ظافراً وشكر ابن الخطاب لأنه شفى غليله من العُبْدان (العبيد) أي الثلاثة الذين شهدوا عليه.

(١) (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لعز الدين بن الأثير الجزري، ٦٣٠-٥٥٥هـ، المجلد الخامس، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، د.ت، كتاب الشعب بمصر.

وأخرج لهم لسانه ولم ينس في طريق عودته أن يمارس هوايته المفضلة فنكح «تزوج» من بني مُرَّة. ولو أن الطبري ذهب إلى أنه فعلها وهو متوجه إلى يثرب «المدينة» ولو صح لغدا أوعر، إذ معناه أنه واثق من صدور الحكم ببراءته. لذا فإن الشبق بلغ به أقصى مداه فلك أن تتخيل شخصاً معرضاً للموت رجماً كيف يفكر مجرد تفكير في النكاح(١).

إن عزله عن البصرة اجراء صوري لامتصاص غضب جماهيرها إذ سرعان ما ولاّه الكوفة وظل بها حتى انتهاء خلافته.

والسؤال الذي ينتصب في الذهن على الفور:

كيف يعيّنه العدوي والياً بعد اتهامه بالزنى وشهادة ثلاثة عليه منهم صحابي؟ وحتى إذا أفلت من الجزاء، ألا تلحقه الشبهة التي تكفي لرفع صلاحيته عن تولي هذا المنصب؟

ألا يوجد بين - الصحابة وهم يُعدّون آنذاك بعشرات المئات من يصلح له؟

هل مازال هناك من لديه ذرة من شك أن تاريخ تلك الحقبة كُتب بطريقة منحازة: تبجيلية تفخيمية من دون أساس؟

استمر المغيرة في سلوكه الذرائعي، لم يحد عنه قيد أنملة ففي وقعة صِفيّن بين صاحب الحق الشرعي في الخلافة الإمام علي كرم الله وجهه وبين الطليق ابن هند وقف متربصاً فكافأه ابن أبي

(١) (حوليات الإسلام) لأحمد عطية الله، المجلد الأول، ١٤٠١هـ، دار التراث بمصر.

سفيان مكافأة جزيلة إذ ولاّه الكوفة بعد أن عزله منها الخليفة الثالث، وسواء في الولاية الأولى أو الأخيرة اعتقل أهل الكوفة ألسنتهم في أفواههم فلم يلاحقوا المغيرة وهو يواصل غزواته النسوانية إذ إن شبح الجزاء الصارم الذي أوقعه العدوي عمر على الشهود الثلاثة ظل ماثلاً أمام أعينهم. وتحدثنا كتب التراث العالية الرتبة أن مجموع من نكحهم بلغ ألفاً ولو أننا نرى فيه شطراً من المبالغة إنما لا مشاحة أنه يدل على السعي الدائب لهذا المغيرة وراء النسوان(١).

هذه صورة سريعة لواحد من الفاعلين الاجتماعيين المشهورين (والشهرة خلاف العظمة فلكلٍ مقاييسها) في فجر الإسلام وهي (وغيرها بالطبع) تفسر لنا الكثير من الأمور: منها موقف النصوص من المرأة وفي الناحية الجنسية حصراً وتحديداً والحرص على تحجيبها وتخميرها وتغطيتها من أخمص قدمها حتى ذؤابة رأسها.

ومنها أن زمن انبثاقها (النصوص) ومجتمعها وأفرادها وبيئتها مغايرة تماماً لما نحن فيه من كافة الأرجاء.

ومنها أن غالبية رموز تلك الحقبة أضيفت إليها قداسات زيوف وأضفت عليها هالات متخيلة وأن التاريخ الذي حملته مصنفات السيّر والطبقات..الخ، التي لا مطعن عليها يناقض الصورة المزورة التي يرقش بها كتبهم الطبالون والزمارون والمداحون.

---

(١) (أزمنة التاريخ الإسلامي)، تأليف وتصنيف عبد السلام الترماتين مراجعة وتحقيق شاكر مصطفى وأحمد مختار العبادي، الجزء الأول، المجلد الأول، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٢م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

وأختم مقالي بمسألة حيرتني ووقفت عندها ملياً هي أن هذا المغيرة الشبق بشهادة صديقه العدوي والذي شهد عليه ثلاثة أحدهم صحابي والذي حصر همه في مفاخذة النسوان حتى ضرب الرقم القياسي في هذا المضمار - هذا الذرائعي الذي وظّف دهاوته في جر النفع لنفسه حتى باستعمال الرشوة المحرّمة في كل الأديان والعقائد والملل والنحل، هذا (الصحابي الجليل) كما لا يزال يصفه التفخيميون والتعظيميون يحمل بعض دواوين السنة ذات المقام المحمود لدى أهل السنة والجماعة عدداً من رواياته لأحاديث المصطفى عليه السلام.

العرب والمرأة

في الإسطير العربي: للرجال هيمنة على النسوان وإذا رأت المرأة واقعة فلا تستطيع أن تقصّها كما حدثت لأنها تفتقر إلى المَلَكَة العقلية التي تؤهلها لذلك وضربة لازب أن تؤيدها أخرى، ولها جزء من المال، ولا تسافر وحدها وأفضل مكان لها دارها بل عُقْر دارها هو الخِدْر ومن ثم فهي المُخَدَّرَة أي المُخَبَأة المُخَزَّنَة وكلها عورة حتى صوتها وهي أسيرة (عَوَان) عند الزوج وعليها الطاعة الشاملة الكاملة ولو أمرها ألا تغادر المنزل حتى لزيارة أبويها فيجب أن تمتثل وإلا عُدَّت عاصية كالعبد إذا خالف فهو آبِق ولا تجلس مع أجنبي منفردة وخير لها ألا يراها رجل ولا ترى رجلاً وإذا خرجت من دارها فلا تُظْهِر سوى عينيها وأن تكون تَفِلَة (غير متعطرة) لأن الطِّيب الذي يفوح من أردانها يحرك رغبة الرجال.

ولا حاجة بها إلى التعليم إلا النزْر اليسير «وعليها أن تظل دائماً في هيأة سارة بهيجة لأن زوجها يتعين أن يراها كذلك أي كلما وقع بصره الكريم عليها أفرحته وأسعدته وإذا دعاها لقضاء وطره فحتم لازم أن تلّبي في أي وقت وفي أي موضع وإذا لم تفعل فهي ملعونة من الصباح إلى المساء أو من المساء إلى الصباح» فضلاً

عن أن له حق هجرها فإذا لم ينفع الهجر معها فمن حقه أن يضربها ولا يُسْأل فيم ضربها!!! وهو يستطيع أن يفكّ عقدة النكاح في أي وقت حتى ولو بعد عِشْرة دامت عقوداً من دون رقيب أو حسيب ومن حقه أن يتزوج عليها أكثر من واحدة ولا يحق لها أن تعمل فعملها سوف يعطّل الوظائف الرئيسة المنوطة بها وهي:

- ❖ تقديم المتعة للزوج.
- ❖ إنجاب الذرية الميمونة له.
- ❖ خدمته وأولاده بل وعبيده.
- ❖ من حق البعل أن ينقلها معه لأي بلد يشاء من دون أدنى اعتراض منها أو من أهلها «الزوج وهو يتولى الإنفاق عليها يقوم بشراء مستلزماتها حتى ملابسها الداخلية إذ هو غير ملزم بإعطائها نقوداً لتشتري بها حاجياتها».
- ❖ محظور عليها أن تستقبل أي رجل في غياب زوجها خلاف والدها وإخوتها حتى ولو كان ابن عمها أو ابن خالها..الخ، حتى قبل الدخول وليس مطلوباً منه تقديم مبرر مقبول أو غير مقبول.
- ❖ ولا يحق للمرأة أن تزوّج نفسها وإن كانت بالغة عاقلة رشيدة بل وثيّباً ولا يصح عقد نكاحها إلا بولّي من أهلها من العصبات وقرأنا في الإِسْطار العربي عن زوجة تولّي عقد زواجها ابنها الصغير وأن على المرأة أن تَخْتَتِن أو تُختَتَنْ وعللوا ذلك أن القَلْفَاء مُغْتَلِمَة شديدة الشهوة تتطلع دوماً إلى المباضعة ويرجع ذلك إلى أن بقاء نسوانهم قعيدات الخيام المباركة طوال الوقت به (لا شُغْلة ولا مَشْغَلَة) يدفعهن إلى التفكير في ذلك والعلاج هو خَتْنُهَن وخِتَانُهن.

❖ وليس للمرأة أن تسلِّم على أجنبي لأن مجرد اللمس من الطرفين يؤجِّج الرغبة في كليهما بل يهيِّج الشهوة لأنه مجتمع ليس فيه نشاطات سوى النزوع إلى ملامسة الآخر ولذا فإن هذا الأمر استنزف مساحة وسيعة من الإسْطِير.

❖ وحتى الآن بعض بني يعْرُب عندما يسلم على المرأة الأجنبية فإنه يضع منديلاً على يمينه قبل التسليم!!! وإثْر عدد محدود من الأيْمان تغادر الزوجة بيتها الذي ظلت فيه سنين طويلة غير مأسوف عليها أما السيد البعل فيظل فيه بل في اليوم عينه ينكح أخرى.

❖ إذا كرهت امرأة زوجها وطلبت مفارقته ورضي بذلك فعليها أن تردّ إليه ما أعطاها من مهر وتوابعه وربما زيادة وهي بذلك اخْتَلَعَت وبداهة تبرئه من حقوقها كافة.

وقد شبّهوا هذا الخُلْع بفداء الأسير أي ما يدفعه ليُفَكّ من الأسر، ما يؤكد أن المبعولة (الزوجة) عانية (مأسورة) لدى بعلها. وملعونة محرومة المرأة التي تطلب فراق زوجها من غير بأس وبلا سبب قاهر أو ضرورة ملجئة أو عذر حازب، أما صاحب السيادة البعل فله أن يطلق ولا أحد يسأله لم؟ وعلى المرأة المفصولة فصلاً تعسفياً من مؤسسة الزوجية التي ربما تكون قد أفنت فيها زهرة عمرها عليها أن تَنْتَظِر شهوراً حتى تنكح غيره لماذا؟ لاستبراء رحمها الذي ربما عَلِقَ شيئاً «كيلا تختلط الأنساب ذات الشأن الجَلَل في ذياك المجتمع البدوي البدائي» أما الزوج فيمكنه أن يتزوج في الليلة نفسها باستثناء حالة واحدة شاذة فريدة وإذا كان صاحب ثِنْتَيْن ويميل لإحداهما ويفْرِك الأخرى فيكفي العدل

الظاهري أي في ليلة المحبوبة يقبل عليها أما المكروهة المنشوءة فيعطيها ظهره وهكذا يكون قد عدل في القسمة وعمل ما عليه!!! أليس هو البعل السيد المالك؟

إذا مات الزوج فإن على الأسيرة العانية أي الزوجة أن تمكث مدة محددة حتى تتزوج، وأكثر من ذلك فحتم عليها ألا تخرج من بيتها ليلاً إلا لشأن ضروري ضرورة قاهرة وتتجنب الزينة بل ومسّ الطيب ولو مسّاً خفيفاً أما صاحب البِعَالة فإن من حقه أن ينكح أخرى فوراً إلا في حالة يتمية فاذّة.

وملكية الزوج لزوجته في الإِسْطَار العربي مسألة لا ينتطح فيها عنزان كما يقول مثلهم البليغ المشتق من بيئتهم المُعْجِبَة ومن الأدلة عليه:

أن ليس للزوجة أن تُرْضِع غير ولدها إلا بإذن زوجها لأن لبنها فرع منها والذي يملك الأصل بداهة يملك الفرع، كما أنه ليس من حقها أن تسافر خارج البلدة إلا بإذن زوجها حتى ولو مع والدها فإذا فعلت فإن هذا الوالد يُعزَّر (يعاقب) وتُعَزّر الزوجة إن كانت تستطيع التخلف أما إذا خافت سطوة أبيها ولم يسعها إلا الانصياع لأمره فلا تعزير عليها.

ولكن كيف يُعَزّر الأب إذا اصطحب ابنته معه في سفره؟.

الجواب أن هذه الزوجة انتقلت ملكيتها إلى زوجها فور عقد النكاح، واصطحاب الوالد لها بغير إذن زوجها فيه تعدٍ على هذه الملكية والمتعدي يُعَزَّر إذا تزوج فوجدها غير صالحة لتمتيعه كأن تكون صغيرة فلا نفقة لها عليه لماذا؟

لأن النفقة تتبع الانتفاع «وما دام لا انتفاع فلا نفقة» أي الانتفاع الرئيسي من المرأة هو تقديم المتعة وتُجْبَر الزوجة وتُكْرَه وتُقْسَر على تمكين زوجها من الاستمتاع ببدنها بجميع أنواعه المباحة مقبلة مدبرة مستلقية..الخ.

وكيف لا تُكْره على ذلك وهي أسيرته ومملوكته ألا يسمى عقد الزواج حتى الآن في جزيرتهم المباركة المُلْكَة (بضم الميم) وعروة الزواج تبلغ ذروة الهوان في الإِسْطَار المخيّم إذ البعل يمكنه أن يوكّل غيره في القيام بفصمها كما يوكّله في فسخ عقد شراء عتبة (دار) وكيف لا وسبق أن قلنا إن الأعاريب يسمون الزوجة: عتبة ويتلاعب اليعْرُبي بأيمان الطلاق ولم لا؟ أليس هو السيد، فأحدهم يحلف على زوجه الحامل: أنت طالق طلقة واحدة إنْ ولدتِ ذكراً أما إنْ ولدتِ أنثى فأنت طالق مرتين فتلد توأماً ذكراً وأنثى فيختلف سدنة الإِسْطِيْر: هل وقعت الطلقات الثلاث فتَبِيْن منه أم يُكْتَفَى بالحد الأعلى أي بالطلقتين أي كما يقال في القانون الجنائي (الجزائي) تطبق العقوبة الأشد ولم يفكر أحد منهم (سدنة الإِسْطار المُخَيَّم) أن هذا عبث لا يليق بأقدس علاقة لماذا؟ لأن في لا شعورهم تقبع المرأة/الناقة والمرأة/ الحِجْر فكما أنه حر في ناقته وفرسته فهو كذلك بالنسبة إلى امرأته أليس هو المالك لها جميعها!! وحتى لا يسأم الرجل وهو يقطع آصرة الزوجية فقد هيأ له الإِسْطِيْر ثلاثة أنواع يختار منها ما يشاء وما يلائم هواه ويتفق مع مزاجه... مراعاة لمكانة صاحب البِعَالة. وإذا طلق البعل أسيرته وله منها أطفال فلا حضانة لها عليهم إلا إذا تفرغت لهم فإذا تزوجت فلا

حضانة لها أي إنها تختار أمّر الأمرين: تماماً كالناقة إذا باعها صاحبها فلا يتبعها فصيلها القاعدة نفسها، وتفسير ذلك أن المرأة/الناقة مترَسِّبة في أعماق العقل الباطن عندهم.

تُطْرَح عدة تعليلات لهذه القواعد أما العلة الحقيقية فلا يجرؤ أحد أن يقترب منها.

نرى في الإسطار المخيّم تشديداً لافتاً للنظر على ضرورة ستر الساقين حتى أنهما بلغا حد العورة في ذلك مع أنهما من الأعضاء الأطراف وهناك من الأعضاء الأطراف ما لم يحدث بالنسبة إليه هذا التشديد ولا نُصَنِّفُه مثل الذراعين والبعض الآخر منها (الأعضاء الأطراف) لا حرج من ظهوره مثل القدمين والبعض الثالث مباح ظهوره مثل اليدين فلماذا حظي الساقان بذلك التشديد؟ هنا تبرز أهمية عملية الحَفْر اللغوي والأنثروبولوجي والتاريخي..الخ، التي ننادي بها لتفسير قواعد الإسطار تفسيراً عقلانياً صحيحاً... فقد رأينا في الفصول السوابق من هذه الحفرية أن الأعرابي كان (ولا زال) يعتبر الساقين الممتلئتين الخَدَلّجين شارة موثقة وعلامة مؤكدة على أن المَرَة التي تملكهما تهب متعة مضاعفة ومن هنا ينطلق التشديد على سترهما وتغطيتهما، ثم ننتهي من ذلك إلى ما سبق أن طرحناه أن أحكام الإِسْطِيْر يتعين بطريق الحتم واللزوم ربطها بموجبات بيئتها وإكراهات مجتمعها ولهذا فإن القول بالسرمدية والصلاحية لكل زمان ومكان أمور تحتاج لتمحيص علمي جاد تُسْتَخْدم فيه كل أدوات البحث والتدقيق العتيقة والحديثة وما بعد الحديثة إنْ لزم

الأمر ولا يُكتَفى فيه بالأساليب الخطابية والإنشائية التي وإن دغدغت العواطف واستثارت الوجدان فإن مردودها العلمي لا يساوي شيئاً.

تلك بعض الأمثلة عن موقف الاسطير من المرأة إذا نقَّبت عنها وجدت أن لها جذوراً غائرة عميقة في نفسية اليعْرُبي، كما أفصحت عنها لغته أو لسانه الذي رصدته لنا المعاجم والقواميس، فعندما تُفلِّي تلك القواعد تجد أنها ضاربة في الغور بمعنى أنك لو سلطت عليها أشعة كاشفة كتلك التي يسلطها الباحثون على الأشياء التي يبحثونها ليعرفوا كنهها لبرزت لك من الأعماق التقاليد العتيقة والمفاهيم القديمة التي سطرتها لنا المعاجم والقواميس وكتب المفردات من كلمات وتعبيرات وتركيبات والتي رسمت لنا بانوراما نابضة بالحياة عن ذلك المجتمع الذي تداول تلك اللغة (اللسان) ولاستبان لك أن الإِسْطِيْر المخيّم رسّخ تلك الصورة بتقْنِينْها وتقْعِيْدها، فبعد أن كانت تقاليد وأعرافاً غدت كليّات وأحكاماً فقصور عقلية المرأة وعدم الاعتماد على روايتها المنفردة مرجعه إلى أنها (المرأة) وقت التخاطب باللغة ووصفها وتسميتها بالأوصاف والأسماء التي ذكرناها كانت صلتها بالعالم الخارجي مقطوعة ما خلا مضارب القبيلة، ومثلها من الحتم اللازم أن تُصاب بضيق الأفق وضمور التفكير وضحالة الذاكرة، ومن كانت على هذه الحالة يُشَكّ في روايتها لما تراه ولا تُسْتَند لها عُمالة ولا تُكَلّف بوظيفة، ولذا كان اليعاريب منطقيين ومتسقين مع أنفسهم عندما نفوا عن المرأة تفنيد الرأي لماذا؟ لأنها لا رأي لها من البداية

منذ أن كانت شابة فنَصَف فصاحبة سُؤْرة (بقية من شباب) في كل هذه الأدوار هي عديمة الرأي فكيف يُقال عنها إذا كبرت وشاخت إنها مُفَنَّدَة الرأي لأن فاقد الشيء لا يعطيه والأصح أن يقول إنها خَرِفَت، فإذا جاء الإِسْطَار ووصمها بالقصور والنقص والهُزال في المَلَكات العقلية بعامة فهذا هو الطبيعي بل والبديهي وهذا هو ما كان يُتوقع منه، وعندما يُقعِّد (الإِسْطِيْر) ضرورة أن تسبغ المرأة على نفسها ثياباً فضفاضة تسترها ولا تَصِف ولا تشِفّ ولا تظهر سوى عينيها أو على أحسن الفروض وجهها وكفيها يتوجب علينا لفهم ذلك استحصار صورة المَرَة في مِخْيال العَربَة الجَسِيمة اللَّحِيمة العجزْاء الثِقَال الرَدَاح الثَدْيَاء..الخ، فمثل هذه يجب سترها وستر أعضائها الغليظة المَمْكُورة المليئة النافِجَة عن أعين الغرباء لأن هذه الكنوز الثمينة ملك خالص للبعل لا يشاركه فيها أحد حتى ولو بمجرد النظرة المُمعنة أو الخاطِفة، كما أن هذه المرأة بجسمها البضّ التَميْم الجَرِيم العَبْل الرَدَاح المُتربِّل إذا ظهرت برداء شَفِيْف أو حَبِيْك فسوف تظهر تقسيماته وتبدو تفصيلاته فتتحرك الشهوات وتثور الغرائز ويستيقظ الشَبَق... خاصة في مجتمع بدائي يحتل فيه النزوع إلى الآخر حيزاً وسيعاً... وهو أمر غير مستحب... والمقطوع به أنه لو كانت النسوان لدى الأعراب رشيقات خفيفات مَصْوَاءاتَ رَسْحَاوَات رَصْعَاوات كميثلاتهن في البلدان المتحضرة لما احتاج الإِسْطَار إلى هذا الكم الهائل من الحظْر والمنْع والتَقَيّد والتَشْدِيْد بشأن لباس المرأة وزينتها وطِيْبِها (عِطْرها) وغطاء رأسها..الخ.

ألا تقدم هذه الفقرة برهاناً يضاف إلى ما سبق أن الحَفْر اللُّغوي يساعد على فهم الإِسْطِيْر الفهم الأمثل وعلى تفسير كلياته التفسير الأصح وأن التغاضي عن هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق الموضوعية لن يزيد الأمور إلا خَطَلا وَرْبَكاً.

بقاء الأعرابية جِلْس الخيمة قصيرة الخباء مخدَّرَة خَبَأة مستترة كما ترسمها المعاجم جعل الإِسْطَار يرى أن هذه هي الصورة المثالية لكل امرأة في سائر البيئات وعلى اختلاف العصور وكرّ الدهور، ومن ثم جاءت قواعده تدفع إلى محاكاة هذا النموذج الأمثل من حَثّ على الاسْتِكْنَان في عُقْر الدار إلى الكلام من وراء حجاب..الخ، ولو أن اللغة حملت إلينا صورة مغايرة للمرأة مثل صورتها في المجتمعات الزراعية فيها الخروج للعمل وبالتالي الاختلاط مع الرجال ومشاركتهم في هموم الشغل وتدبير المعاش ورعاية حيوانات الزراعة المختلفة والطيور.. وتربية الأولاد لتباينت التعليمات واختلفت الممنوعات والمُبَاحات ولجأت على وجه مختلف ذات سَحْنَاء مغايرة كما أن بقاء العربية طوال الوقت رهينة الخيمة جعل هاجس التلاقي والتماسّ لديها متوهجاً مُتَلَعِّجاً ولا دواء لهذا الداء اللعين أنجع من إبعادها عن الطرف المُوجب وصرفها عنه أو صرفه عنها. وأدّى الإِسْطِيْر دوره في هذا المجال ببراعة منقطعة النظير فنقرأ فيه عن حظر الخُلوة بأجنبي ووجوب التحدث معه خلف ساتر غليظ ومنع استقبال أي شخص سوى الأب والإخوة مهما كانت درجة القرابة... والذي أمدّنا بفقه هذه الكليات الصَوَارِم هو الحَفْر اللُّغوي فعندما طالعنا في القواميس أن المرأة

في مجتمعهم جَلْس، قَعِيْدَة، مخدّرة، مخبوءة، مستورة، مصونة أدركنا على الفور العلة في حض الإِسْطِيْر لها على البقاء على حالها وهو القرار في أعمق أغوار الدار وفي منعها من الخلوة بأجنبي وعدم استقباله، وإن كان ولا بد فمحادثته من خلف حجاب. في ذلك المجتمع كان عمل الرجال محدوداً للغاية بالقياس إلى أعمالهم في المجتمعات المتحضرة وعمل المرأة شبه معدوم، ومن ثم جاء الإِسْطَارُ ينفِّر من عمل المرأة (خارج الخِبَاء والخِيَم) ويبشعه لسبب في غاية البساطة أنك عندما تتصفح القواميس والمعاجم لا تجد كلمات أو تراكيب عن عمل المرأة إلاّ العُمالات الساذجة البسيطة مثل الظِئْر (المُرضِعَة) والمُقيّنة (التي تزيّن النسوان وخاصة العرائس) والخَافِضَة (الخَاتِنَة أو مُقَطّعة البُظُور) والداية (المولدة) والراقية (التي تَرْقِي) وفضلاً عن ذلك فإن اللاتي كن يقمن بها إما الجواري أو الحرافيش والزعانف وخلو المعاجم والقواميس من وظائف سواها يدلّ على أن الأعاريب لم يعرفوا للنسوان غيرها وبالتالي فإنه من البديهي لا من الطبيعي فقط أن يجيء الإِسْطِيْر وهو عَرّي منها لأن فاقد الشيء لا يعطيه وهو قد خاطب من خاطبهم عَبْر اللغة التي افتقرت إليها فكيف يُتَصَور عقلاً أن ينص عليها؟ وما ينطبق على العمل ينطبق على تعليم المرأة، فإذا كانت الأمية ضاربة بأطنابها على الرجال أنفسهم فكيف يتناول لسانهم أمراً لا وجود له إذ كيف يتحدثون عن تعليم المرأة والرجل ذاته أميّ أباً عن جَد بل عن سابع جَدّ وبالمثل وبالقدر نفسه فإن الإِسْطير بطريق الحتم واللزوم من المستحيل أن يلتفت إليه وتحت إكراهات لا

محل لذكرها اضطر (الإسْطير) إلى السماح بالقدْر الضروري لتعليم المرأة مع التأكد على أن المهمة الرئيسة لها هو عملها في الدار بضروبه كافة ويسمونه تزييفاً وتمويهاً (مملكة المرأة) عندما قعّد الإسْطير قاعدة ضرب المرأة أصاب مرازبته وخاصة المُحدَثِيْن منهم رَبْك شديد وانتابتهم حَيْرة دفينة ولحقتهم لَخْمَة غامرة (في المعجم الوسيط: اللَخْمَة ثِقَل النفس) وجاءت تبريراتهم لها خليطاً من المماحكات اللفظية والشطارة الفكرية (الشاطر الخبيث الفاجر.اهـ) والألاعيب العقلية تذكرك بِمحاولات تربيع الدائرة وأبرز مثل ذكره على ذلك ما قام به الأستاذ عباس محمود العقاد في إحدى عبقرياته في هذه الخصوصية (ضرب النسوان) مع أن الأمر أهون من ذلك بكثير فقد رأينا في هذه الحفرية في باب المرأة/الفرسة أن الحِجْر (أنثى الفرس) في بعض الأحيان: تَنْشِص على صاحبها وتأنف وتُفَرْفِر وتعنك ويصدر منها نَزَق وخَطَل وهي أفعال تدلّ على الحُرُوْن... فماذا يفعل؟ في البداية يسوسها بجميع أنواع السياسة فإذا لم تُجْدِ معها ضربها ضرباً خفيفاً على جاعريتها ولا يتعدّى ذلك ولما كانت الفرسة قابعة في مِخْيال العُرْبان فإن امرأته إذا أنشَزَت عليه راضها بكل ضروب المراوضة فإذا لم تحقق الفائدة المرجوة واستمرت المرأة في نشوزها وفي مقدم صور النشوز حرمانه من الطقْس اليومي المعتاد وهو قُرْبانها، عند ذلك يُستَثَار غضبه فيضربها كما يضرب الفُرَيْسَة النَاشِص وهو يتجنب الوجه الذي فيه الفم الذي يَرْشُف رُضَابه والشفتين اللتين يمْصّهما ..الخ. ونكرر ما سبق أن سطرناه: هو لا يُسأل بأي

نوع من أنواع المسألة: فيم ضرب مرته وكيف يُسأل وهو: المالك السيد البعل!!! وهذا كله مسطور في اللغة التي حملتها المعاجم وإن لم يكن بذات الترتيب المعروض هنا وقد تسربت إلى الإِسْطَار الناطق بها وتسللت إليه وتحولت إلى قاعدة ولا يقدح في وصفها قاعدة أو كلية أو عمومية أنها جوازية وليست إلزامية لأن ما يحمله الإِسْطِير بين دفتيه يكتسب تلك الصفات حتى ولو كانت جوازية لأن جوازيتها كامنة خامدة فإذا تهيأت لها الظروف باينت كُمونها وفارقت خُمودها ولزم تطبيقها من قِبَل من يتمسك بها ولا تثريب عليه لأنه أثبت أنه من موالي الإِسْطَار ومحاسبيه وهذه رتبة عالية ودرجة رفيعة بل شرف مُنِيْف وهكذا نقدم دليلاً وراء آخر على أن الحَفْر اللُّغوي يطرح التأويل السديد لكثير مما قد يبدو مُلْغِزاً أو مُشْكِلاً أو مُتَشابِهاً خاصة في نظر المُحَدثِيْن من السَّدَنَة فبدلاً من التلاعب بالألفاظ واللجوء إلى حَيِل الحُواة وخِفَة يد السَّحَرة فعليهم بالأصول اللُّغوية والجذور اللسانية وهي أيسر من أساليبهم التي تَسْتدعي الشَّفَقَة ولا تقدم الحلّ الصحيح.

في الفصل الخاص بالحركة العنيفة والفعل الجَفْو أو الجافي قرأنا كماً وفيراً من الأسماء والأفعال والصفات التي أطلقها العُرْيان عليه وقلنا إنها تدلّ على أنه (الفعل الجافي) كان له حيز متميز في حياتهم وأنه جزء هام من معيشتهم بل ركن ركين فيها وقدمنا الأسباب المقنعة ونضيف أنه بإعادة النظر في تلك الألفاظ يتبين أنهم (العربان) كانوا يقومون به (الفعل الجافي) بطرائق متعددة وكيفيات مختلفة وهيئات متنوعة وسرعات متدرجة وهذا أمر بديهي

لأنه ما دام (الفعل الجافي) هو المتنفس الوحيد لتفريغ الطاقة وشغلهم الشاغل عندما يعودون إلي خيامهم المباركة ويؤوبون إلى أخبيتهم الميمونة فإنهم يفننون في أدائه ويُبْدِعُون في إنجازه وينوعون في كيفية القيام به. والإسْطَار كما كررنا وصل إلى من خوطبوا به عَبْر ذات اللسان الذي يحمل هذه التوصيفات الكثيرة التي تعد بالألوف لهذا الفعل وهيآته وأشكاله... ومن المحال أن ينسلخ الإسْطِيْر عن اللسان (حامله) فينزع عن الفعل أهم سماته وأبرز علاماته وأوضح قسماته ونعني التعددية والتنوعية ومن ثم فقد جاء (الإسْطِيْر) متسقاً مع مصدره متوافقاً من منبعه متناغماً مع أُسِّه عندما قرر قاعدة حق الرجل في التلذذ بِمَرَته في أي وضع: مقبلة، مستلقية، مدبرة، جاثية، باركة، مُقْعِيَة، مُقرفِصة، مُفَرْشِحَة، وسَنَانَة..الخ، وفي أي وقت يشاء وفي أي مكان يختاره وإذا رفضت أو عارضت إن بالنسبة إلى الوضع أي الكيفية أو الزمان أو المكان فله حق إجبارها حتى تمتثل وتنصاع وتخضع فالذي يردد النظر في هذه الكلية العامة لأنها تشمل كل المُخَاطَبات بها بلا تمييز ويحيك صدره منها شيء فعليه أن يتتبع خيوطها فسوف يجد أنها تنتهي به إلى اللسان أو اللغة «فهي التي حملت بواكيرها الأولى ومنها انتقلت إلى الإسْطِيْر الذي لا معدّى له عن حملها ثم تقنينها وتشريعها» وهذا مِدْمَاك نضيفه إلى المداميْك السوابق التي ندعّم بها دعوانا إلى أننا لن نفقه الإسْطار حق الفقه إلا بعمل حفريات متنوعة وعلى رأسها الحَفْرِيَّات اللُّغوية ولعل هذه الحفرية الرائدة تفتح الطريق أمام حفريات أخرى في شتى المجالات وكما قلنا في بحوث لنا سالفة:

إن الدراسات الرائدة من الحتم اللازم أن يشوبها قدر غير قليل من الخطأ والقصور بيد أن شرف الريادة يكفيها إذ هو أعلى وسام تفوز به.

آراء ومواقف -٢-

النص المؤسس

تاريخية النص المؤسس

تاريخية النص المؤسس لا تجد قبولاً من الدوغماطيقين، بل إنها تثير حفيظتهم ويعتبرونها بدعة ضالة مضلة.

يرفعون أمامها مقولة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وهذه ليست آية كريمة ولا حديثاً محمدياً ولم يفه بها واحد من الصحاب.

على أحسن الفروض أطلقها تابعي.

أبو حنيفة النعمان شيخ مذاهب الأحناف أكبر المذاهب لدى أهل السنة والجماعة - حدّد الموقف من آرائهم بقوله: (فإذا جئنا إلى التابعين فهم رجال ونحن رجال).

أي لا قداسة لطروحاتهم لأنها اجتهاد بشري فلنا أن نقبلها إن اقتنعنا بها أو نرفضها إذا افتقرت إلى الحجة وأعوزها البرهان واحتاجت إلى الدليل.

تقديس تركة السلف أحد روافد جمود الفكر الإسلامي بل من دون مغالاة أهمها على الإطلاق ولو أنه يوسع المحجة لغيره من التحاضيض.

«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» عبارة فضفاضة بالإضافة إلى اتسامها باللامنطقية.

فاللفظ الذي غطّاها أو عبّر عنها ليس فيه عمومية بالمعنى الذي توهم به القاعدة.

كما أن إلغاء السبب مصادرة على المطلوب إذ إنه وحده السبيل الفرد لفهم اللفظ الذي وصفته المقولة - من دون وجه حق بالعمومية.

فمثلاً تحلة الأيمان في ﴿قد فرض الله تحلة أيمانكم﴾(١) من العسير استيعابها من دون معرفة الواقعة التي سبقتها وبمعنى أدق التي تسببت في هَلّها أو إشراقها وهي حكاية مسّ «سعد الخلائق: محمد» لجاريته القبطية على فراش العدوية بنت العدوي نعني حفصة بنت عمر وعودتها الفجائية أو غير المتوقعة ورؤيتها فثورتها الغضوب ثم حلفه لها بعدم الاقتراب من الأمة المصرية الجميلة البيضاء.. فقدوم الآية بفك الأزمة بتحويلها العهد الذي صدر منه إلى مجرد يمين من اليسير التكفير عنها كأي يمين غيرها.

إذن من دون معرفة هذه الخلفية من المستحيل نقاهة التحلّة التي تضمنتها الآية فهي (الآية) لا تنضوي على لفظ عام أو بمعنى أدق حكم عام، ولكن أرقل الفقه بعد حين قصير أو طويل وسحبها على الأيمان الأخريات وسوّى بينها في الحكم أي التحلل من القسم.

نخلص إلى أن تعميم اللفظ ليس له وجود وقت أن تلا «المترحم: محمد» الآية على تُبّاعه وقبل أن يكفر عن قسمه أو يمينه

(١) سورة التحريم، الآية: ٢.

أو عهده كيما يعود إلى ملامسة مارية القبطية الحسينة. إنما جاءت العمومية والتعميم أو بمعنى أدق القول بهما بعدها بزمان.

ونحن نؤيد هذا المنحى الذي سار فيه الفقهاء سواء من علماء الصحابة أو من الفقهاء قبل نشوء المذاهب أو من أئمتها ومؤسسي مدارسها.

لماذا؟

لأن هذا العمل يتسق مع ما نادينا به منذ نحو عشرين عاماً وما زلنا: استخلاص المعنى أو القيمة أو المغزى من النص من دون التقيد بحروفه.

أي لم يشترط الفقهاء حدوث واقعة مماثلة لقصة مارية القبطية، بل أخذوا الدلالة منها وطبقوها على النوازل التي استجدت في عصرهم.

إنما الاعتراض على المقولة أو القاعدة التي وضعت خصيصاً لنفي قاعدة التاريخية التي يبغضها السدنة والمرازبة والدهاقون.

لماذا؟

لأنهم يعيشون بل يتعيشون على تجريد النص المؤسس وتحويله إلى نماذج متعالية وأمثلة مفارقة وترميزات مباينة لا علاقة لها بواقع الناس ولا وشيجة لها بهموم حياتهم ولا صلة لها بمشاغل معاشهم.

بيد أن سلوك الفقهاء يؤيد من جانب آخر تاريخية النص المؤسس التي رفعنا شعارها منذ سنوات طوال.

لعل العبارة في حاجة إلى مزيد من الإضاءة.

إصرار الفقهاء على استخلاص المغزى أو المعنى أو القيمة هو اعتراف ضمني بل صريح بأن الآية التي استخرجوا منها الحكم ارتبطت بنازلة معينة تشيأت على أرض الواقع في زمن محدد وأبطالها هم «دعوة إبراهيم» وسريته القبطية وبعلته العدوية وفي مكان معلوم هو حجرة الزوجة المهرية وعلى فراشها فهو - أي المكان - إذن لعب دوراً بارزاً لا يقل أهمية عن بقية العناصر التي تتشكل فيها الحكاية، فلولا أنه خاص بابنة الخطاب وأن باب الحجرة غير محكم ومساحتها محدودة لما تسنى لحفصة اكتشاف وطء «المعظم المعطي: محمد» لأمته المصرية الحسناء الفاتنة على فراشها وسريرها، بالإضافة إلى البلد الذي حدثت فيه وهو (أثرب: يثرب) بخلاف إبّان وقوعها، إذن تاريخية الآية أمر ملموس بالحدس قبل أن يدركه العقل أو حتى يمكن التوصل إليه بالحدس أو الانتهاء إليه بالتخمين أو التعرف عليه بالفراسة.

ولكن ما هي الحكمة في التأكيد على التاريخية؟

هناك عدة حكم «جمع حكمة» لا حكمة مفردة:

أولاها: أن نفيها من جانب الدوغماطيقيين إنكار لما هو معلوم بعدة طرق من وسائل الإدراك وهذا بلا مشاحة أمر ينافي الموضوعية.

وثانيتهما: أنه بمثابة هدم للعماد الذي ترسخ عليه النص المؤسس.

وثالثتهما: يؤدي إنكارها بطريق الحتم واللزوم إلى سوء فهم النصوص المؤسسية، ما يوصل إلى تفسيرات شاحبة وتأويلات ضامرة وتوضيحات هزيلة.

ورابعتها: أن بترها من سياقها التاريخي سوف يسلم في نهاية الشوط إلى التعتيم وفي آخر المطاف إلى التضبيب، وفي ختام المضمار إلى الغبشة (ظلمة آخر الليل) وبدوره سيجر إلى:

الخامسة والأخيرة: تضارب التفسيرات وتناقض التأويلات واختلاط الشروحات ومرج الإيضاحات واضطراب الاستخلاصات.

لماذا؟

لأن تاريخية النص المؤسس بمثابة البوصلة التي تحدد للسفينة - في وسط المحيط - خط سيرها الصحيح.

التمسك بتاريخية النص المؤسس يعيد إلى الأذهان حقيقة غدت ملقاة في مربع النسيان لأسباب عديدة وهي أن القرآن المجيد بدأ شفاهياً وحفظ في الصدور مدة طويلة إبّانها اتسم بالطزاجة والعطاء والبكورة والتفتح حتى زمل (أسرع) الأموي عثمان بن عفان وسيّجه وأغلق عليه بين دفتين[١]. وتحول من القرآن إلى مصحف وهو لفظ لم يرد في (المرفوع/المطهر: القرآن) وإن وردت به كلمة صحف، والمتفق عليه أن كلمة مصحف حبشية والأشد غرابة أنه أصبح يدعى «مصحف عثمان» رغم أنه «المصحف الإمام» ونمتنع عن الخوض في المعركة التي خاضها الأموي عثمان مع عدد من

(١) الدفة من كل شيء جنبه أو صفحته، من «المعجم الوجيز».

الصحابة الذي تملكوا مصاحف خاصة بهم ولا بالاختلافات في هذا الشأن فمن أراد الاطلاع عليها فعليه بكتاب المصاحف للسجستاني وغيره[1].

إنما الذي يهمنا أن تسمية القرآن العظيم بـ«مصحف عثمان» تكرست في عهد الأسرة المالكة الأموية بدءاً بمعاوية بن أبي سفيان وذلك لأهداف سياسية أقلها تثبيت مكانتها لدى «الرعية!!!» وفي مواجهة بني هاشم أصحاب الحق في منصب الإمامة العظمى الذي اغتصبوه منهم بطرق نعفّ عن تسطيرها.

ولعلها سخرية من القدر أن ينسب القرآن الكريم إلى فرد من البطن أو الفخذ الذي وقف بالمرصاد لـ«عين العز/محمد» وهو ينشر دعوته ويؤسس دولة جده قصي فيقال «مصحف عثمان» لا «مصحف الحبيب المجتبى/محمد»، حتى أن أحد الباحثين المخضرمين لم ير غضاضة في أن يزبر «وبذلك تمت موافقة الأمة كلها على مصحف عثمان»[2].

بعد أن سكّ شيخ بني أمية القرآن بين اللوحين تحول من نص شفاهي طازج منفتح إلى كتاب تعلوه القداسة وتحف به المهابة وتحوط به الجلالة، وبمضي الوقت وكرور الأيام تحلقت حوله كوكبة من السدنة وطائفة من المرازبة ومجموعة من الحجّاب يمنعون

---

(١) كتاب المصاحف تأليف أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني «باب المصاحف العثمانية»، وكذلك كتاب «فضائل القرآن» لابن كثير، ٧٠٠-٧٧٤هـ، طبعة ١٩٧٩، الناشر علي رحمي، مصر، من ص٤١ حتى ص٥٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، ص١٨٩، طبعة ثانية.

الاقتراب منه إلا بإذنهم ويحظرون تفسيره إلا إذا مهر بخاتمهم ويحجرون تأويله إلا على من حاز صفات أو مؤهلات أو مُكنات ينفردون هم بتحديدها.

ومن الطريف، وكم في مجال الإسلاميات وإن شئت قلت في الدينيات عموماً من طرائف وعجائب ومدهشات يحار الفطن ذو اللب والحجى والنهى في تعليلها أو عقلنتها أو منطقتها «جعلها منطقية» فيعجز فيقال له: لا تتعب نفسك فهي كذلك(١).

فإما أن تتقبلها على علاتها وإما حد الردة وما أدراك ما حد الردة!!!! - نعود فنقول إن تلك المواصفات المستحيلة غير متوافرة فيهم هم «السدنة - المرازبة - الحجاب».

إن حياطة النص المقدس بسور يقف عليه الحراس ولا يفارقه الحُلاس ولا يغادره المتحرزون ليست خاصة بديانة الإسلام بل سبقته فيها اليهودية فالنصرانية «المسيحية».

هؤلاء الذين يتولونها أو يباشرونها من الطبيعي أن يعادوا «تاريخية النصوص المؤسسة» لأن مصلحتهم المادية والأدبية تتركز في إفهام عامة المؤمنين أنها «النصوص» مفارقة ومفاصلة ولا صلة لها بواقع الناس بل لها آفاقها العالية المرموقة ومجالاتها المثالية السامية وفضاءاتها النموذجية الباذخة.

وكنتيجة مباشرة يمكنهم تطويعها وفي استطاعتهم تشكيلها وبمقدرتهم تلوينها بالصورة التي يريدونها.

---

(١) العامة في مصر تقول: هي كده.

وفـريق آخـر يشن حـرباً لا هـوادة فـيـهـا على الـتـاريخـيـة وأصـحـابهـا، نعني بهم أولئك الذين يسـتـخدمـون «النصوص» لمآربهم السياسية كأيديولوجية تفتح أمامهم طريق السلطة.

في هذه الحالة فإن إبقاء «نص التأسيس» في برج عاجي يتيح لهم اتخـاذه «النص» أداة فـعـالة لتـبـيـيض وجـه شـعـاراتهم وبرقـشة لافتاتهم وتجميل ادعاءاتهم.

فكلما بقي «النص» مجـرداً ومفـاصـلاً وبعيد المنال صـار أصلح للاسـتـخـدام وأسـهل للاسـتـعـمـال وأيسـر للتـوظيف خـاصـة أن كل ما يمت إلى الدين بصلة ليس ثم ما يدانيـه في التـأثيـر على القـاعـدة الشعبية العريضة[1].

وسيظل الأمر على منواله إلى أن تتغيـر أحوالهـا المادية أولاً ثم الثقافية والمعرفية.

إذن ربط «النص المؤسس» بتـاريخ هلّه أو إشـراقـه أو انبـثـاقـه سيقطع الطريق أمام مساعـي أصحاب هذا الفريق لأنه سوف يعري شعاراتهم الزيوف حتى من ورقة التوت التي حـاول أبوهم آدم وأمهم حواء أن يسـتـترا بهـا من عيني الرب كـمـا حكتـه القـصـة التـوراتية المعجبة، وآخرون غير هـاتين الجوقتين ينظرون إلى التاريخية شزراً لأسـبـاب تيـولوجـيـة، بيـد أن حـلاس النص المكتوب الذي أغلق بين اللوحين أو الدفـتـين، والمهـجـيين والديمـاغـوجـيين السـاعين للسلطة بارتداء الإزار الديني هم الفـرقـتـان الأشـد عـداوة والألد خـصـومـة والأحمى نزاعاً لها.

---

(١) الأدبيات الإسلامية تسميها الرعية وهي ذات اللفظة التي تطلقها على الماشية.

القرآن الكريم الذي حفظه الصحاب في صدورهم يسميه باحث «الصورة الصوتية»[(١)].

ويرسم لوحة فنية رائعة لها «أما الصورة الصوتية فتتجلى في تلقي القرآن بالمشافهة من صاحب الوحي، إذ كان النبي يقرأ ما ينزل عليه والصحابة حوله يسمعون بآذانهم ما يقرؤه النبي فيعرفون عن طريق السماع حقيقة النظم القرآني ويقفون على أسلوب أدائه، وينبغي أن نذكر أن هذا الضرب من التلقي لم يقع مرة واحدة بل تكررت القراءة وتكرر التلقي عن النبي، فالرسول الكريم كان يحفظ القرآن والصحابة الآخذون عنه كانوا يحفظونه كذلك، ثم يعود هذا المحفوظ خلال الصلوات، فكان الرسول يقرأ وهو يؤم الصحابة، والمصلون من ورائه يسمعون وهكذا حفظ القرآن في صدر النبي وصدور الصحابة»[(٢)].

ويؤكد الزركشي في «برهانه» أنه (في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - تُرك جمعه في مصحف واحد)[(٣)].

ويفرق السيوطي بين الكتابة والجمع فيؤكد أن «القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ ولكنه لم يجمع في موضع واحد ولم ترتب سوره»[(٤)].

---

(١) المصحف الشريف، دراسة تاريخية وفنية، د. محمد عبد العزيز مرزوق، ص١٢، سلسلة «قضايا إسلامية»، طبعة ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) ذات المرجع والصفحة.

(٣) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، ص٢٣٥، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

(٤) الإتقان، ص٥٧، نقلاً عن «مصحف عثمان» لسحر سالم، ص٦ .

بيد أن الأمر الثابت أن الاعتماد كلياً على الحفظ في الذاكرة والجمع في الصدور استمرا من دون غيرهما حتى منتصف خلافة التيمي: أبي بكر أي منذ واقعة غار حراء حتى سنة ١٢هـ، أي ما يقرب من ٣٥ عاماً.

والحجة على ذلك أنه عندما شرع زيد بن ثابت في جمعه تمهيداً لكتابته توكأ على محفوظات الرجال، بل إن عدداً من الآيات لم يجدها مكتوبة على اللّخاف والرقاع والعُسب والأكتاف، بل عثر عليها عند بعض الصحاب مثل حزيمة بن ثابت وأبيّ بن كعب.

وإبان ذاك طفق العدوي ابن الخطاب - صاحب فكرة الجمع - ينادي بصوته الجهوري في الناس (من كان تلقى عن رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به)[١].

ولنلاحظ أنه لم يقل «من كتب شيئاً من القرآن فليأتنا به».

❖ ❖ ❖

مع صعوبة تصور كتابة القرآن العظيم كله على الأدوات الكتابية البدائية إياها..الخ، فضلاً عن أن ذّياك المجتمع المعجب شبه المتبدي وثقافته الشفاهية فهو يعتمد في تجميع وتراكم معارفه على الأذن قبل العين ومن ثم فإن وعاءها «المعارف» الذاكرة والصدر لا المجرة والقلم والورقة.

والدليل عليه أنه على الرغم من آلاف القصائد والمقطعات الشعرية التي قيلت أو أنشدت قبل الإسلام فلم يكتب إلا المعلقات والقليل غيرها وجماعها نقل من جيل للذي يخلفه بطريق الشفة.

(١) كتاب المصاحف للسجستاني، ص١٤-١٥-١٦-١٧، مصدر سابق.

ومن ثم فليس من باب المصادفة أن القرآن المجيد ضم المئات من لفظة «سمع» ومشتقاتها.

وقدم السمع على البصر ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار...﴾(١).

و﴿جعل لكم السمع والأبصار﴾(٢).

بل خطا خطوة أوسع وفي ذات الوقت أعمق دلالة وأبين حجة وأبلغ برهاناً إذ قدمه على العقل ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل﴾(٣).

وتعليله فيما نرى أنه «الأحسن/العظيم»: القرآن» خاطب أفراد المجتمع، وبالتالي فمن البديهي أن يأتي متوافقاً مع حالتهم، ملائماً لظروفهم، موائماً لأعرافهم وهذا أحد آدلة إعجازه الذي لم يلتفت إليه من قبل، إذ إنه لو قدم البصر أو النظر على السمع لجاء مفارقاً لإلفهم، مبايناً لعادتهم مفاصلاً لأحوالهم ولاستغربوا منحاه ولتعجبوا من منهجه ولاستنكروا طريقته.

إن ما نذهب إليه يستند إلى حجة بالغة وردت في الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾(٤).

وسبق أن زبرنا أن اللسان لا يعني لغة الخطاب فحسب، بل يشمل المحصول المعرفي لـ«القوم» ودرجتهم الحضارية ومخزونهم الثقافي وما تعارفوا عليه في سوق الكلام ونقاهته وإدراك ما

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

يضمه من شفرات وما يحتوي عليه من رموز وما يحمله من مضامين، فلو خاطبهم الكُمّل أو البطاركة بخلاف ما درجوا عليه وعلى نقيض ما استقروا عليه وبعكس ما ربّوا عليه لما استعموا لقولهم ولما قبلوا ما يطلبونه منهم ولما آمنوا بما يدعونهم إليه.

فإذا عدنا إلى سياقة التنقير:

لاستبان لنا أن «الصورة الصوتية» للقرآن الحميد حسب تعبير الباحث المذكور هي الأصل أو الأس أو العماد، ومن رجا آخر هي المتسقة تماماً مع أحوالهم وظروفهم وما شبوا عليه وشابوا.

إن هذه الصورة الصوتية أو القرآن المحفوظ في الصدور والمنقوش في الذاكرة والذي استمر أكثر من ربع قرن بل إنه امتد حتى سنة ٣٠ هجرية وهي التي يرجح باحث رصين أنها سنة كتابة المصحف(١).

أي هو المعول عليه لما يقرب من خمسة وأربعين عاماً وهي ليست سنوات عادية بل هي التي شهدت الانبثاق وعاينت التكوين وحايثت التأسيس.

نستأنف فنقول إنه هو الذي أفسح المجال لكافة الصور التي ذكرنا أمثلة منها فحسب والتي تضمخت النصوص التي هلّت بشأنها وبزغت بسببها وأشرقت متصلة بها بروائحها وهي التي شكلت العلاقة الجدلية البالغة الروعة بينها وبين الواقع المعاش بكل تجلياته وفي سائر مناحيه وبمعية تعرجاته.

(١) القرآن وعلومه في مصر: ٢٠/٣٥٨هـ، للدكتور عبدالله خورشيد البري ص٤٥، الطبعة الأولى ١٩٧٠م، دار المعارف، مصر.

ونزيد الأمر إيضاحاً:

لو أن «مأدبة الله: القرآن» أشرق دفعة واحدة كنص «مجموعة» أو «مدونة» أو كما يقول المشتغلون مثلي بالقانون «كود» كتوراة موسى التي زبرها «رقمها» ربه بأصبعيه القدسانيين[1] لما أتيح للمشاكل والأزمات والنوائب..الخ، أن تجد لها حلاً أو فكاكاً أو فرجاً..الخ، ولك أن تتخيل حال ذياك المجتمع المعجب والفاعلين فيه إذا لم تسعف الآيات الكريمة بالحلول النواجع والأدوية الشافية والتوجيهات السامية والإرشادات الفعالة.

إن (الكتاب المبين: القرآن) ضم شطراً كبيراً منه تناول قصص الخلق والتكوين وآدم وحواء والشيطان وهابيل وقابيل ونوح وطوفانه المدمر ثم حكايا بقية البطاركة وهذه كلها وردت نظائرها في الكتاب المقدس خاصة العهد القديم.

كما قصّ حكايا عاد وأخيهم هود وثمود وأخيهم صالح والناقة المدهشة التي خصص لها يوم تشرب فيه بمفردها والقرية بأكملها بشراً وحيوانات لهم يوم وذلك امتحان «فتنة» لهم هل يصبرون أم يكفرون.

هذه الحكايا عرفت منذ قرون في جزيرة العرب وتناقلتها أجيال وراء أجيال.

والنوعان كلاهما: قصص العهد القديم وحكايات الجزيرة المباركة لا حاجة لهما بالتنجيم أو التبعيض أو التجزيء.

(١) من الطريف أن ذلك الإله المدهش الذي يسميه بنو إسرائيل «يهوه» لم يعرف عمالة «بضم العين» السكرتير التي أهدى إليه مخلوقاته فيما بعد.اهـ.

وذهب بعض المفسرين أنها أشرقت للعظة والعبرة، وفريق آخر زبر: أي كتب أن القصد منها التسرية عن «بدر/البرهان: محمد» وتسليته وتخفيف بعض ما يعانيه، أما الفريق الثالث فيؤكد أن غرض شطر منها هو مقارنة حالته بأحوال الكمل السابقين مثل نوح، إبراهيم، موسى، وهود، وصالح..الخ(١).

ومن ثم فقد هلت السور الخاصة بهذه القصص والحكايا دفعة واحدة تقريباً في نصوص متكاملة، بخلاف السور والآيات التي جعلناها موضوع كتابنا هذا فقد بزغت كالبدور الطوالع مجزأة مفرقة أي نجوماً وأبعاضاً حسب الحاجة ووفق الحالة كما أوضحنا تفصيلاً.

وهذا ملحظ شديد الأهمية بالغ الثمانة كبير القيمة ولسنا نغالي إذا قلنا إن أحداً من الباحثين لم يلتفت إليه من قبل:

لقد قسموا الفرقان العظيم إلى:

مكي ومدني، نهاري وليلي، حضري وسفري، فراشي ونومي، صيفي وشتائي، أرضي وسمائي..الخ.

لكن قط لم تتم التفرقة بين القصصي والمعاشي أو الحكائي والواقعي أو الروائي والحياتي وإذا وجدت ثمة مشابهة (ولا نقول مماثلة أو مطابقة ونأمل أن يغدو هذا واضحاً وضوحاً تاماً منعاً

---

(١) لمزيد من التفصيلات ارجع في هذه الخصوصية إلى كتاب «الفن القصصي في القرآن الكريم» للدكتور محمد أحمد خلف الله، مع شرح وتعليق لخليل عبد الكريم، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م، سينا للنشر - مصر، والانتشار العربي - بيروت.

لأي لبس..اهـ) بين النوع الأول «القصصي/الحكائي/الروائي» وبين ما جاء في الكتاب المقدس خاصة العهد القديم وبين الشائع على ألسنة العرب فيما يتعلق ببطاركة الجزيرة المبروكة.

فهناك مفاصلة تامة ومباينة كاملة واختلاف شديد بين «الذكر الحكيم/القرآن) وبين الكتب السوابق عليه في التاريخ لا في الرتبة أو المقام فيما يتصل بالنوع الآخر، وهذا من أهم السمات التي نفحته التفوق عليها وخلدت فيه النضارة والبكارة والفتاء(❖).

(❖) النص المؤسس، السفر الثاني، دار مصر المحروسة.

النص المؤسس ومجتمعه[1]

فرشة

الحبيب المصطفى - عليه السلام وعلى آله - لم ير في حياته مصحفاً ولم نسطر أنه: لم يقرأ لأنه كما ذكر القرآن العظيم وكما شهد هو على نفسه: أميّ.

وكل من أبي بكر بن أبي قحافة التيمي وعمر بن الخطاب العدوي وعدد من الصحابة على ذات الشاكلة أي لم يشهدوا مصحفاً.

تلك الحقيقة رغم ثبوتها إن ذكرتها لأي مسلم مهما بلغ حظه من التعليم - غير الديني - بادر باستنكارها ورماك بالجنون أو أنك تستهزئ به أو ألصق بك تهمة المروق من الإسلام.

هذه المفارقة الصارخة تدعونا أو تضطرنا للتمييز بين القرآن المقروء أو المتلو الذي حفظته صدور الرجال وبين القرآن المكتوب الذي دوّن إبّان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الأموي.

القرآن المقروء أو المتلو أو المحفوظ في الصدور غض طري يتفجر نضارة وبكارة، أبوابه مفتوحة ومداخله ميسرة ومنافذه واسعة ومآتيه سهلة، ومفاتيحه طيّعة.

---

(١) النص المؤسس، دار مصر المحروسة، القاهرة، مصر.

أما القرآن المدون أو المكتوب فتغلفه القداسة وتعلوه المهابة وهو محفود محشود ومحروس مخفور، تحوطه أسيجة منيعة وأسوار عالية يقف عليها حجّاب وسدنة ومرازبة يحولون بين أي إنسان والاقتراب منه إلا إذا حاز صفات حددوها بدقة وعينوها بصرامة وذكروها بتفصيل وهم وحدهم أصحاب الكَلِم الفصل في إحاطته بها واستيعابه إياها وتمكنه منها كيما يتعين عليه أن يحصل على تصريح من أولئك الحلاس مذيل بتوقيعهم المهيب وممهور بخاتمهم القدساني.

وترتيباً عليه وكنتيجة حتمية له فإن التفاسير الحديثة ليست للقرآن المجيد إنما هي للتفاسير التراثية السلفية القديمة التي مرت عليها قرون والتي تنعت بأن أمة لا إله إلا الله تلقتها بالقبول والترحاب والتجلة.

ومن ثم فإن المفسرين المحدثين لا يطرحون تفسيراً للنص الأصلي ولا يقدمون تأويلات للقرآن الكريم بل ينفحون قراءهم توضيحات وتحشيات وتعليقات وشروحاً وتلخيصات ومختصرات لما في تفسير الطبري والزمخشري والرازي والكلبي وابن كثير والقرطبي والبيضاوي والتستري والسيوطي..الخ.

بل وحتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مع أن العهد به قريب.

ولذا فإن القارئ غداً يعرف وإذا أحسنا الظن به قلنا إنه يعلم آراء أولئك الأكابر وأحكامهم ومذاهبهم وتنظيراتهم فحسب لا التي جاء بها الذكر الحكيم.

وهي معضلة لا يستهان بها ويتوجب الالتفات إليها.

لماذا؟

لأنه مع تقديرنا البالغ لأولئك (المفسرين) الأعاظم فإن ما رقموه في مؤلفاتهم شيء وما حمله (مأدبة الله) شيء آخر.

إن المفسر من أولئك الأفذاذ عاش في قرن معين وبيئة محددة ومجتمع له أبعاده ومناحيه وأعرافه وموجباته وإكراهاته، وهو نفسه تملَّك ثقافة خاصة به تفترق بدرجة أو بأخرى عن ثقافة أقرانه من المعاصرين، وله ذكاؤه وقريحته وذاكرته الحافظة ووعيه وذهنيته ومخيلته ومعتقده ومنحاه الفكري واتجاهه الأيديولوجي ومدرسته الفلسفية ونحلته الكلامية (علم الكلام)..الخ.

ومن خلال كل هذه القنوات العامة والخاصة تسرب تفسيره أو تأويله، ومن طبائع الأمور أن يتأثر بها ويتشكل بقسماتها ويحمل بصماتها ويتروّح بريحها (رائحتها) ويتزيا بزيها ويبرز بآياتها..الخ.

وفي نهاية الأمر وغاية الشوط وآخر المدى ينقلب التفسير إلى نص آخر مغاير للنص الأصلي ومفارق ومباين إياه.

حدث هذا بحذافيره في الفقه المالكي فـ(المدونة) التي أملاها عبد الرحمن بن القاسم على أسد بن الفرات ونقلها إلى إفريقية (تونس) ولو أنها مروية عن شيخ المذهب نفسه إلا أنها (المدونة) غدت هي المرجعية التي لا تقبل جدلاً أو مناقشة أو معارضة أو محاجة، وعلى جوانبها ألفت الحواشي والتعليقات والمختصرات والتهذيبات..الخ.

حتى يمكن أن نقرر أن مالكية محدثة أو مبتدعة ظهرت واستقرت هناك لا صلة لها بمذهب شيخها، وإذا أحسنا الظن ربطتها به علاقة واهية أشد رقة من خيوط العنكبوت.

وغضب مؤرخون وفقهاء عديدون واتهموا من أقدموا على ذلك بأنهم أفسدوا مذهب الأصبحي صاحب الموطأ عالم المدينة مالك بن أنس عطّر الله مثواه.

ونطرح هذا المثل للتدليل على أن التيمم نحو النصوص الثانوية أو الجانبية أو الهوامشية والاحتفاء والعناية بها ووضعها في بؤبؤ العين ومركز الرعاية ودائرة الضوء، منحى له تاريخ عتيق وجذر غائر وأصل ثابت في فضاء الفكر الإسلامي وليس أمراً عارضاً أو شأناً هزيلاً أو رافداً محدثاً أو بدعة وافدة أو سحابة صيف عن قريب تنقشع.

وهنا مكمن الخطر وبيت الداء وجرثومة العلة وسبب الوهن ومنشأ المرض، إذ لو أنه على خلافه لما أثار الانتباه وشد البصر واستوقف التأمل واستدعى التفكر واستنفر التمعن، وميدان أهميته فسيح ومجال أثره وسيع، ومدى فعاليته عريض. ويكفي في هذه العجالة التمهيدية أو التمهيد العجِل أن نورد شطراً نحيفاً، وهو أنه يجر دارس القرآن العظيم والباحث في علومه بعيداً عن ركائزه الأساسية وعمده الرواسخ وأصوله الثوابت إلى مجرد آراء وأنظار وأفكار فاه بها فلان، ويصرفه عن منابعه الصافية وعيونه النقية وموارده السائغة إلى مشارب لا تقاس ولا تقارن بها، فأين الأرض من السماء وأين الثرى من الثريا.

بيد أنه لِمَ أقدم المفسرون المحدثون عليه نعني الانصراف عن تفسير (السبع المثاني) ذاته والنهل من التفاسير التراثية يقتطعون منها فقرات كوامل قد تطول أو تقصر أو يهذبونها أو يختصرونها أو يعلقون عليها أو يحلون أعناقها بالحواشي والشروح والتوضيحات والتبيينات..الخ.

ولا بأس بإيراد بعض المفردات الغوامض من النص الأصلي لرفع الستار عن هذا الغموض.

والإجابة على هذا التساؤل لا تحتاج إلى زكانة ولا تتطلب فطانة ولا تستدعي لقانة ولا تستحث لوذعية.

لأن الاتكاء على التفاسير القديمة أو التراثية أو السلفية هو جواز المرور للحظوة برضى المتنفذين في رئاسة شؤون التقديس الذين نصبوا أنفسهم حُلاّساً لـ(أحسن القصص) وهو درب الولوج إلى البوابة الملكية التي من دون المروق من عتباتها المهيبة يستحيل عليهم الحصول على الموافقة على نشر تصنيفاتهم وإن تقت إلى الانضباط فهي تجميعاتهم.

إن من أصعب الأمور أن نصدق أنّ المفسر المعاصر الحديث يجهل أن سلفه الصالح قد عاش في زمان غير زمانه وفي مجتمع مغاير لمجتمعه وبيئة تخالف بيئته، وتسلح بثقافة مباينة لثقافته، وتزود بمعارف غير معارفه، وحصل على علوم تفاصل علومه وواكبته أنساق اجتماعية واقتصادية ومعرفية وسياسية وإعلامية وتعليمية..الخ، لا وجه للمقارنة بينها وبين أندادها من الأنساق التي تحايثه.

ومن أبعد الفروض أن نؤمن أنه (المفسّر المعاصر) لا ينقه (يفقه) أن تلك الإكراهات جميعها لا بد أن تطبع تفسير سلفه بميسمها، وهذا ما يؤكده ويثبته علم اجتماع المعرفة، بل ما تدركه بدائه العقول إذ تقطع به شواهد الحال، وهذا الدمغ لا يظهر في الأسلوب فقط: تراكيب الجمل، وصياغة العبارات، واختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمات، بل يتعداه إلى الأفكار والتنظيرات والحكم على الأمور وتقييم الوقائع، واستنباط القواعد ومن ثم قيل: إن الإنسان ابن عصره.

وللتدليل عليه نضرب مثلاً سريعاً: فعندما تقرأ (عجائب الآثار في التراجم والآثار) المشهور بـ(تاريخ الجبرتي) لمؤلفه عبد الرحمن ابن حسن الجبرتي، وتطالع أي كتاب لسميّه المؤرخ المعاصر عبد الرحمن الرافعي تلقى بوناً شاسعاً في كل المناحي التي ذكرناها، مع أن الفارق الزمني بينهما لا ينيف على قرنين وربع قرن.

هنا قد ينبري لنا قارئ فلحاس ويصيح ناعقاً أو ينعق صائحاً: هناك بينونة بين التأريخ والتفسير، إذ إن الأخير يتمحور على نص ونص مقدس يتوجب على المفسر تراثياً أو معاصراً أن يلتزم به ويدور في فلكه ولا يخرج عن نطاقه.

أما المؤرخ فهو يرصد الوقائع ويحللها من دون مرجعية أمامه يضطر إلى أن يرتبط بها ويتقيد بلزومياتها.

ونعقب عليه فنسطر:

هذا دفع فسيد؛ لأن وجود الأساس الذي ينبني عليه التفسير لا يلغي خصوصية المفسر ولا ينفي كينونته ولا يغرب هويته ولا يعدم شخصيته..الخ.

وإلا غدت مدونات التفسير نسخة واحدة وهو ما لم يحدث، فضلاً عن أنه لا يفوه به ذو لب صحيح وتفكير سديد وعقل سويّ بل لا يدعيه من له ذرة من وعي أو مُسْكة من قريحة.

وكيما نوقف المراء الشكس وننهي الجدل العقيم ونضع حداً للنقاش الفارغ، نهدي القارئ ما دبجه واحد من شوامخ مفسري القرآن المجيد ومن أقدمهم، له في فضاء الفكر الإسلامي مقام محمود ورتبة سامية ودرجة رفيعة، ولد في قرية القداسة - بكة - في منتصف القرن الهجري الثاني وتلقى العلم على يديه وحدث عنه خلق لا يحصى من الأثبات المحققين.

ويكفي أن تعرف أن ابن جرير الطبري، شيخ المفسرين وعمدتهم وذروة سنامهم، نقل عنه الكثير من تفسيره الذي لا ينتطح عنزان في قيمته وأنه من أجلّ التفاسير، ويمكنك أن تصرح بأنه مقدمها من دون معارضة وبلا مجادلة وبغير حجاج.

فعندما فسر ابن جريج الآية الكريمة: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾[1] أورد ما يأتي:

أخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ قال: بلغني أن عرض كل أرض مسيرة خمسمائة سنة وأن بين كل أرضين مسيرة الثرى واسمها تخون، وأن أرواح الكفار فيها ولها منهم اليوم حنين، فإذا كان يوم القيامة ألقتهم إلى

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

برهوت فاجتمع أنفس المسلمين بالجابية والثرى فوق الصخرة التي قال الله في صخرة، والصخرة خضراء مكللة والصخرة على الثور له قرنان وله ثلاث قوائم يبتلع ماء الأرض كلها يوم القيامة والثور على الحوت وذنب الحوت عند رأسه مستدير تحت الأرض السفلى وطرفاه منعقدان تحت العرش ويقال الأرض السفلى على عمد من قرني الثور ويقال بل على ظهره واسمه بهموت يأثرون انهما نزل أهل الجنة فيشبعون من زائد كبد الحوت ورأس الثور، وأخبرت أن عبدالله بن سلام سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - علامَ الحوت قال على ماء أسود وما أخذ منه الحوت إلا كما أخذ حوت من حيتانكم من بحر من هذه البحار، وحدثت أن إبليس تغلغل إلى الحوت فعظم له نفسه وقال: ليس خلق بأعظم منك غنى ولا أقوى، فوجد الحوت نفسه فتحرك فمنه تكون الزلزلة إذا تحرك فبعث الله حوتاً صغيراً فأسكنه في أذنه فإذا ذهب يتحرك تحرك الذي في أذنه فسكن(١).

فهنا تجلى بوضوح شديد الأفق المعرفي (الأبستمولوجي) للمفسر ونضحت ثقافته على ما خطّه قلمه وتبدت معطيات بيئته وما حفل به مجتمعه من أساطير.

ونذكر أنه في ذياك الوقت وجد قصاصون في المساجد والتجمعات الشعبية درجوا على الخوض في كافة المجالات الدينية وأخصها التي تصلح للتهويلات والخوارق والمدهشات مثل ما حفل

(١) تفسير ابن جريج، جمع وتحقيق علي حسن عبد الغني، ص٣٢٣، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

به هذا النص المعجب. ومن أغزر الأخبار دلالة أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب العدوي شجع أولئك القصاص - خاصة في البلاد التي داسوها بسنابك خيولهم المباركة واستعمروها ونهبوا خيراتها بهدف التمكين للدين واللغة اللذين حملوهما للأراضي المغزوة التعيسة.

ومن الطريف أن محقق الكتاب، وهو كما سطر في المقدمة عضو في هيئة التدريس في كلية جامعية، لم يعقب على هذا النص المدهش ولو بجملة أو شبه جملة.

وحراس (العروة الوثقى) من مؤسسة شؤون التقديس يجيزون هذا النص وأمثاله، في حين أنهم ينادون بمصادرة الآراء أو الأفكار أو المعطيات التي تهدي تجديداً للفكر الديني (الإسلامي) وتنويراً وتثويراً.

ولكي لا نطيل على القارئ نكتفي بهذا النص، فهناك العشرات المشابهة التي تطفح بالأسطورية واللاعقلانية والخرافة في التفاسير التراثية خاصة ما يسمى «الإسرائيليات» عند تفسير الآيات الكريمة التي تتناول القصص الواردة في العهد القديم الذي يقال عنه تجاوزاً (التوراة) وكثير منها نقلها مصنفوها أو أوردوها عن عدد من مشاهير الصحابة وفي مقدمتهم عبدالله بن العباس وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وغيرهم.

حقيقة أن المفسرين المحدثين أو المعاصرين تجنبوا ما استطاعوا (الإسرائيليات) و(النصوص المدهشة) كالذي أتحفنا به ابن جريج ولكن في نظرنا هذا المسلك لا يغير من الأمر: إذ ثبوت

«الإسرائيليات» و«المعجبات» في أي تفسير من التفسيرات التراثية يكشف من دون لبس وبغير غموض عن المستوى الثقافي للمفسر الذي رقمها في مؤلفه ويوضح الرتبة الحضارية للمجتمع الذي شبّ فيه والبعد المعرفي للبيئة التي نشأ فيها.

وبالتالي من الميسور عليه (على المفسر الحديث/المعاصر) أن يفطن إلى أن التعويل على ذياك المفسر والاتكاء على أطروحاته خطأ منهجي تماماً كالطبيب الحديث/المعاصر الذي يداوي مرضاه بالسنا والسنوت وحبة البركة والفصد والحجامة والرقى..الخ.

هذه واحدة.

أما الأخرى الأوعر والأدهى والأنكى فهي:

إيهام القارئ أن هذه الخزعبلات والشعبذات والمخاريق هي عين ما جاء به القرآن الكريم وما هدف إليه وما تغيّاه.

ولعل من نافلة القول أن نسطر أنه لا توجد إساءة له أشد، إذ هو منها بريء براءة الذئب من دم الفتى الحليوة يوسف بن يعقوب؛ لأنها تقيم بين القارئ وبين المعطيات الصحيحة للذكر الحكيم سداً منيعاً، وتحول دون فهمه إياها على الوجه السديد وتمنح الطروحات الزيوف سنداً مقدساً، ما يشيع الخرافات والجهل لديه وينفحه مناعة ضد قبول العلم وحصانة ضد إعمال العقل وملكة - إن صح هذا اللفظ - العيش في خضم رمال البداوة وهضاب الجهالة وكثبان التخلف.

ونضع في حجر القارئ علة أخرى لخَنَس المفسر المعاصر/الحديث عن النص الأصلي وهرولته إلى التفاسير التراثية يشرب منها عللاً بعد نَهَل بل يعبّ منها حتى يتضلع:

الكسل العقلي والاسترخاء الفكري والبلادة الذهنية وجماعي متوافقة تماماً مع حالة التردي الراهنة التي تضرب الشعوب الإسلامية عربية وأعجمية، فباستقراء تاريخ الفكر الإسلامي نلفي أنه في عصور الانحطاط يختفي أو يكاد الإبداع والاختراع والابتكار ويشيع فيه التكرار والاجترار والاتباع.

وهو بالفعل ما حدث منذ أن بدأ انكسار الحضارة الإسلامية وهبوط خطها البياني بل وانحداره بشدة، ونستطيع أن نذكر، مع قدر غير قليل من التجاوز، أنه طفق يتحقق منذ القرن السابع الهجري، إذ تحول التأليف إلى تصنيف وتجميع وتوليف..الخ، وأطلت الرؤوس الشوهاء للحواشي والتعليقات والملخصات والشروح..الخ.

ومن ثم فإنه من المؤتلف لهذه السُّنّة الاجتماعية أنه لم يظهر فيلسوف بعد ابن رشد وتوارى في الظل المجتهد المطلق بعد أئمة المذاهب الأربعة ومن لحق بهم إبان قرنين من الفقهاء ولم يبزغ في سماء علم الكلام نجم ساطع وقمة شامخة كواصل بن عطاء والجبائيين والجاحظ والنظام، ولم نر شاعراً مفلقاً مثل أبي تمام والبحتري وجرير والأخطل وبشار بن برد وأبي العلاء المعري.

أما في نطاق المادة المبحوثة فقد انتهى زمن المفسرين الأكابر: مقاتل بن سليمان والطبري والقرطبي والرازي والزمخشري والبيضاوي وابن كثير (ولو أنه متأخر نسبياً)..الخ.

ثم نرجع لسياقة الدراسة: إذن اتخاذ المفسر الحديث/المعاصر التفاسير التراثية أو السلفية عكازاً له مسألة طبيعية تناسب ولا تباين وتأتلف ولا تغاير وتوائم ولا تتنافر مع التخلف الحالي الذي تعانيه المجتمعات الإسلامية، إذ تصل نسبة الأمية في العديد من دولها إلى أكثر من سبعين في المائة، هذا عن الأمية الأبجدية، أما عن الأمية الثقافية فحدّث ولا حرج، ويعيش شطر كبير من شعوبها تحت خط الفقر، ويكفي أن كل أربعة من عشرة أشخاص في مصر على ذات الشاكلة، وأن سكان العشوائيات فيها يجاوزون الاثني عشر مليوناً.

ومصر تعد من الذؤابة العليا في الدول العربية فما بالك بالتي تعد في مؤخرتها أو مقعدها أو عجيزتها!!!

إذن من الناحية العلمية يستحيل أن تبرز التفسيرات الحديثة/المعاصرة بهيئة منافرة لما تبدو بها الآن.

فالذين دبجوها هم قطعة من نسيج مجتمعاتهم المهترئة المتردية في وهاد التأخر والتبدي والتوحش.

ومن جانب آخر: إذا فرضنا جدلاً أن المفسّر الحديث المعاصر أبدع تفسيراً يمتاز بالاستنارة ويتضمخ بالعقلانية وتفوح في جنباته روائح التقدمية فلمن يقدمه؟ ومن يقبل على مطالعته؟

إن البعد عن التفاسير التقليدية أو التراثية للقرآن العظيم المدون أو المخطوط أو المكتوب والمعروف بـ«مصحف عثمان» والتوجه نحو القرآن المجيد المتلو والمقروء والذي حفظه الصحابة في

صدورهم وهم الذين عرفوا بـ«القراء» والذين استشهد منهم في اليمامة في معركة حديقة الموت ضد بني حنيفة المئات، وهو الأمر الذي أفزع العدوي عمر بن الخطاب فأشار على التيمي ابن أبي قحافة بجمع القرآن وتدوينه - عبء ثقيل على المفسر الحديث/المعاصر ولا طاقة له به لأنه يحتاج في البديّ إلى:

أفق وسيع، وقريحة متوقدة، وبصيرة نافذة، وعقلية متفتحة، وفكر جسور. كما يتطلب: صبر أيوب على البحث والدراسة والتنقيب والتنقير في المصادر الأصلية في شتى فروع العلوم الدينية، وهذه التزامات شاقة مجهدة لا طاقة له بها، هذا إن أحسنا الظن به وسلمنا أنه تمتع بالملكات العقلية التي ألمعنا إليها في ناصية هذه الفقرة، بقيت فقرتان رشيقتان نختم بهما هذه الفرشة: بيد أن الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة يكافئ ما يبذل في سبيل تحقيقها.

الأولى: أن المفسر الحديث/المعاصر عندما اختار النقل أو الاقتباس من موسوعات ومؤلفات وكتب التفسير التراثية أو السلفية، علاوة على أنه آثر السلامة وفضل العافية وانحاز لرجا «ناحية أو جانب» الدعة فإن احتمالاً قائماً لا نستبعده نحن، وهو أنه غير مؤهل لأن يدرك هو أن الكتب التي جاء بها البطاركة الكمل - لا القرآن وحده - ليست محتوى لغوياً فحسب، بل هي مجموعة من المحتويات منها القصصي، والاجتماعي، والسياسي، والعسكري أو الحربي، والتعليمي، والفقهي..الخ.

وأنه مكتوب بلغة عالية وهو - وهذا خاص بالقرآن - إذ دخل في علاقة جدلية في شطر وسيع منه - مع الواقع المعاش والحياة اليومية لمن تلقوه أو استمعوا إليه - فإن هذه اللغة العالية هي التي أتاحت وما زالت تتيح وسوف تستمر في نفح الفرصة أو الفرص «بالجمع» لإعادة إنتاج خطاب آخر على هامشه وهو خطاب تفسيره وتأويله، ورقمنا كلمة أو عبارة «على هامشه» لأنه جزماً وحتماً ضرورة انتصاب فارق واضح بين النص الأصلي وهو الذكر الحكيم وبين التفسير.

ومن هنا فإن النص المقدس أو الأصلي ثابت مطلق لا يتغير فيه حرف واحد، أما الخطاب الثاني، وهو التفسير، فهو نسبي متغير متحرك؛ لأنه يتأثر لا بالظروف الذاتية لمبدعه مثل ثقافته ومنحاه الفكري وأيديولوجيته..الخ، بل وبالأحوال العامة لمجتمعه وبيئته من كافة أقطارها: السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، فجميعها بغير استثناء تترك بصمات أصابعها على المنتج الثقافي البشري وهو التفسير، وهذا علة اختلاف التفاسير على مرّ العصور، وهنا مكمن الخطأ المنهجي الذي يرتكبه المفسر الحديث أو المعاصر عندما يهجم على التفاسير القديمة وينقل منها إما بفصها ونصها وإما بمعناها.

الأخرى: هي تحليل سريع لخبر ثابت في كتب تأريخ القرآن خاصة ومؤلفات التاريخ «الإسلامي» العام والسيرة والتفسير..الخ، وهو أن العدوي عمر بن الخطاب أصابه الجزع وأحس بالاضطراب

وشعر بالقلق عندما بلغه نبأ قتل مئات من (القراء) أي حفظة القرآن في حديقة الموت على يد جنود مسيلمة «الكذاب» زعيم وقائد بني حنيفة.

ما وجه هلع العدوي بن الخطاب لموت أولئك الحَفَظة وهو يعلم أن القرآن مكتوب على العظام وسعف النخيل والأقتاب والأكتاف؟.. ولماذا اقترح جمع القرآن وكتابته وهو يعرف أنه، فضلاً عن ذلك، محفوظ في صدور المئات في قرية أثرب (يثرب) وغيرها وأنه إن استشهد من الحفّاظ مئات فقد بقي منهم أضعاف هذا العدد، إذ إن حفظ القرآن شكل لديهم منقبة يفخر المسلم بها، حتى النسوان فعلنه؟

وما هو السبب في أن التيميّ أبا بكر تردد في قبول الاقتراح، وأن زيد بن ثابت اليثربي قاومه باستماتة ولم يرضخ إلا بعد أن ضغط عليه التيمي والعدوي؟

لعل الإجابة على جماع هذه التساؤلات هي اعتقاد أبي بكر وزيد بن ثابت أنه من الأصلح بقاء القرآن العظيم محفوظاً في الصدور؛ حتى يستمر على نضارته وبكارته وطزاجته وانفتاحه.

ويؤيد هذه الفكرة أن «سيد بني آدم» لم يأمر بتدوينه ونقلت إلينا كتب سيرته الزكية أنه دأب على سماعه من عدد من الصحابة مشافهة ومباشرة، ولا يوجد خبر فرد أنه كلف واحداً منهم بأن يتلوه عليه من تلك الأدوات المعجبة التي كتب عليها!

إذن المصحف المقروء أو المتلو الذي استودعه الصحاب صدورهم واختزنوه في ذاكرتهم ووعوه في قلوبهم وحده هو الذي تسيد وهيمن طوال الثلاثة والعشرين عاماً، منذ واقعة مغارة حِرَى الخارقة حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً، ثم شطراً من خلافة ابن أبي قحافة التيمي ثم دوّن في صحائف وسلم إلى حفصة بنت عمر إحدى الزوجات التسع لـ«أول من تنشق عنه الأرض»، ومع ذلك ظلت الهيمنة والسيادة للحفظ والتلاوة والقراءة «الشفوية» باقي أيام أبي بكر التيمي ثم طوال عهد العدوي عمر وشطراً من حكم الأموي عثمان، فإذا حسبت هذه المدد وضممتها إلى بعض بلغت أربعين عاماً، وبداهة لا ينال من سيطرة القرآن الكريم المحفوظ في الصدور وجود مصاحف خاصة لدى بعض كبار الصحبة على رأسهم: أبو الحسنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعبدالله بن مسعود وأُبيّ وأبو موسى الأشعري، ومن النسوان التيمية عائشة؛ لأن هذه حالات استثنائية والاستثناء لا يقاس عليه.

وبعد هذه الجملة الاعتراضية نؤوب إلى السياق:

علامَ يدل تسيد المصحف المتلو أو المقروء أو المحفوظ في صدورهم رجالاً ونسوة لمدة نيفت على الأربعين عاماً إن في قرية القداسة بكّة أو في قرية بني قيْلة، ويمكن أن نضيف إليهما قرية بني ثقيف «الطائف»، مع الوضع في الاعتبار أنها «مدة الأربعين عاماً» ليست عادية؛ لأنها هي التي شهدت الميلاد وعاينت التدشين وحظيت بالانبثاق وسعدت بالظهور وتمتعت بالشروق وتملت من

الطلوع وانفردت بالبزوغ، والذين عاشوها شكلوا طليعة التلقي، وجماعةُ ميزّها بالبكارة ووسمها بالنضارة وحلّى صدرها بالطزاجة وزيّن جيدها بالانفتاح وهي بكل المقاييس حقبة مدهشة معجبة؟.

وتبعاً لذلك فإن القرآن الكريم الذي هيمن عليها - ونكرر أنه لا يباين القرآن المجيد الذي تمّ تدوينه إبان حكم الأموي عثمان بن عفان في مصحف واحد - هو الذي يمنح دفعة قوية للتعرف عليه والتريض في جنباته المونقة والتنزه في مروجه المورقة وتنسّم روائحه العطرة وتذوق طروحاته الشهية.

ورأينا أن الطريق إلى ذلك هو التنقير عن أسباب النزول والتنقيب عن الملابسات التي واكبت ظهور الآيات والوقائع التي حايثت شروق النصوص؛ لأنها من جانب هي ذاتها التي دفعت الصحاب إلى حفظها ووعيها ودسّها في الذاكرة، وهي ذاكرة تتميز بقوة الحفظ والجمع؛ لأن البدوي الأمي يعتمد عليها بالكلية بخلاف المتحضر والمتمدن، ومن رجا آخر لها أهمية بالغة وخطر شديد في الكشف عن تأريخ القرآن العظيم، والإبانة عن مساره وإلقاء أضواء كواشف على خطواته.

أما الناحية الثالثة وهي مسك الختام: رفع الستار عن ذلك المجتمع وتلك البيئة في جميع أقطارهما وهو شأن يفوق في نفاسته ويبز في ثمانته كل ما سبقه؛ لأن التعرف على أحوالهما (المجتمع والبيئة) هو الرافعة اليتيمة التي لا ضروب لها لاستخلاص القيم واستقطار المعاني واستخراج الدلالات التي هي - من دون غيرها - المعول عليها في النهوض من الكبوة والانفلات من الوهدة والانعتاق

من القيود التي تكبّل مجتمعنا وتمنعه من المضيّ قدماً كيما يلحق بالذين سبقوه في مضمار الحضارة.

جمع البيت المحمدي الشريف تسع نسوان بخلاف ملك اليمين مثل بنت مصر الوسيمة القسيمة مارية القبطية، فمن الطبيعي أن تشتعل الغيرة بينهن وتحتدم الخلافات وتلتهب المشاحنات، ما آذى «الصابر» وضايقه بل وآلمه:

(وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المحتدمة ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميداناً لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به.. وما من شك في أن الرسول قد عانى من ذلك كثيراً)(١).

بلغت الغيرة قُلتها «بضم القاف أي أعلاها» والمنافسة ذروتها والمباراة قمتها خاصة بين الزوجات الحسناوات الجميلات، الفاتنات: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش.

وذات مرة أرسل «المزمل/المدثر» بهدية إلى زينب بنت جحش فردتها إليه، فانتهزت عائشة هذه الفرصة لتدق اسفيناً في العلاقة بين الزوجة البيضاء البرهرة الحسينة وبين «يس» الذي دأب على كثرة التردد على حجرتها وإطالة اللبث عندها، وتعودت هي على إتحافه بنوع من العسل يحبه، وجماعه يشعل النار في قلوب سائر النسوان وأولاهن عائشة فقالت له:

---

(١) نساء النبي، د. بنت الشاطئ، ص٢٠، د.ت.ن، دار الهلال بمصر.

(عن عمرة عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما آلى لأن زينب ردت عليه هديته، فقالت عائشة: لقد أقمأتك، فغضب فآلى منهن)(١).

تجاوزت التيمية بنت عتيق (كان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله وقال له عليه السلام: أنت عتيق من النار فكان يدعى عتيقاً وقيل سمي عتيقاً لجماله)(٢). كل الحدود، إذ لا يجرؤ مسلم ولا مسلمة على أن يوجه هذه العبارة الفلوت (لقد أقمأتك) لـ«سيد ولد آدم» ولعل صغر سنها - إذ لم تتجاوز آنذاك السادسة عشرة وجمالها الذي لا بد أنها ورثت بعضه من أبيها الذي أحاطنا خبراً الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي بأن العلة في تسميته عتيق ترجع لوسامته، يضاف إليهما (حداثة السن والبهاء) وحب «طه» لها الذي اشتهر أمره بين التبيع:

(قال عمر بن الخطاب لابنته حفصة: يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم «يريد عائشة»)(٣).

---

(١) سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد، القزويني - ابن ماجة ٢٠٧-٢٧٨هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المجلد الأول، ص٦٦٤، باب الإيلاء الحديث رقم ٢٠٦٠، طبعة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، دار إحياء التراث العربي، دون ذكر المدينة.

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ٥٦٠-٦٣٨هـ، تحقيق محمد موسى الخولي، الجزء الأول، ص٩٨، د.ت.ن، دار الكتاب الجديد، القاهرة.

(٣) اللولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان «البخاري ومسلم»، تجميع محمد فؤاد عبد الباقي، مراجعة د. عبد الستار أبو غدة، ص٢٥٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، نشرته الجمعية الإسلامية الصينية ببكين - الصين.

أو ربما تعمدت بنت أبي بكر التفوه بهذه الكلمات القوارض لتنفر «المثبت» من بنت جحش وتدمر محبته لها وتثنيه عن إدامة زيارتها وطول المكوث بجوارها.

فروض واردة بيد أنها لا تنفي أن ابنة أبي قحافة تخطت قدرها ولم تلزم غرزها ولم تقف عند حدها وهي تخاطب «ذؤابة قريش».

❖ ❖ ❖

الحديث خرجه ابن ماجة في سننه وهو أحد الصحاح الستة التي تلقتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة والقبول وتضعها على رأسها، ما يقطع محجة التشكيك وسكة التوهين وطريق التهزيل.

يبرهن على صدور الجملة الخائبة من التيمية أن جاء رد فعل «العفو/العطوف» حاسماً وهو الإيلاء بالنسبة إلى جميع بعلاته من دون استثناء وأنه وقد ضرب به المثل في الحلم البالغ الذي لا نديد له وسعة الصدر التي لا مثيل لها والأناة التي يعز أو ينعدم شبيهها لم يقدم على مثل هذه الخطوة الحاسمة إلا لسماعه هذا التعليق البالغ السخف والذي لا مشاحة أنه قد صدمه خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الإيلاء شامل، على الرغم من أنه صرح علانية بأنه لم يحب من الدنيا سوى الصلاة والطيب والنساء (عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حبّب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة)[١].

(١) أورده النسائي في سننه، والطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك.

كذا أخبرتنا دواوين سيرته التي عني بتدوينها السلف والخلف، أنه اعتاد أن يدور على زوجاته التسع كل ليلة، ولا عجب فيه فقد حُفظ عنه حديثه (أوتيت قوة أربعين في البطن والجماع) كما أنه عشق عدداً منهن وتمكن حبهن من قلبه وهن: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش وهو يوقن أنه لم ير للمتحابين مثل النكاح (عن طاوس عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم نر «يُر» للمتحابين مثل النكاح)[١].

إن الإيلاء دلنا على ما كابده من ألم نفسي شديد وجرح غائر بسبب العبارة الامسؤولة التي بدرت من التيمية.

ظن المسلمون أنه قد طلق نساءه فأخذوا يخوضون في هذا الشأن.

(حدثنا ابن عباس قال أصبحنا يوماً ونساء النبي صلى الله عليه وسلم يبكين عند كل امرأة منهن أهلها، فخرجت إلى المسجد فإذا هو ملآن من الناس، فجاء عمر بن الخطاب فصعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في غرفة له فسلم فلم يجبه أحد ثم سلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، فناداه فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أطلقت نساءك؟ فقال: لا، ولكن آليت منهن شهراً، فمكث تسعاً وعشرين، ثم دخل على نسائه)[٢].

(١) سنن ابن ماجة، المجلد الأول، ص٥٩٣، مصدر سابق.
(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، الجزء السابع، ١٣٧٨هـ، مطابع الشعب، مصر.

هذا الحديث حمله البخاري أصح كتاب لدى أهل السنة والجماعة بعد القرآن الكريم وسنتبع بعد قليل بأخبار تطلعنا على أنه مرقوم أيضاً في صحيح مسلم في باب الطلاق ومن ثم فهو متفق عليه.

الصحيح المتفق عليه هو الذي خرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

والحديث الذي يجمع على صحته الشيخان «البخاري ومسلم» لا يماري فيه إلا مشاغب ولا يشك فيه إلا معاسر ولا يعارضه إلا أحدل(١).

توثيق الخبر من كتب «أسباب النزول»:

(روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي - صلى الله عليه وسلم - نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، فنزلت هذه الآية.. فكنت أنا استنبطت هذا الأمر)(٢).

عزاه السيوطي إلى صحيح مسلم وهو المصلىّ «التالي» لصحيح البخاري ثم أورد أبو عمر نادى الأزهري الخبر الذي زبره السيوطي في لبابه كما هو من دون زيادة أو نقصان(٣). وبهذا يزداد الخبر رسوخاً.

---

(١) حدل عليه: مال بظلم أو عداوة فهو أحْدَل وهي حدلاء، من «المعجم الوجيز».

(٢) لباب النقول للسيوطي، ص٥٧-٥٨، مصدر سابق.

(٣) المقبول، ص٢٣٣، مرجع سابق.

واضح من ثناياه أن اجتماع التبّاع في المسجد، ووصف أيأتهم «هيأتهم» ينمان عن القلق الشديد لأن طلاق التسع زوجات حسبما بلغهم مسألة خطيرة، ورأوا أن من حقهم أن يتداولوها فيما بينهم ويقلبوها على كافة وجوهها.

هنا نذكّر بحقيقة يتعين ألا تغيب عن ذهننا ونحن نتناول بالبحث والتدقيق هذه الحقبة المدهشة هي: أن الأفراد أو الفاعلين في مجتمعها أميون متبدون مليطون من كل سمات الحضارة وشارات الثقافة وعلامات التمدن، ومن ثم فإن الحكي أو المناقلة أو المشافهة أو المخاطبة أو المحادثة هي وسيلة الإعلام الرئيسة فيما بينهم.

❖ ❖ ❖

نرتدف بما ضمته التفاسير في هذه الخصوصية:

(وعند مسلم فقلت: أطلقتهن؟ فقال: لا فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر)[2].

توكأ ابن كثير عندما تولى تفسير الآية الثالثة والثمانين من سورة النساء على حديث «مسلم» الذي اتفق عليه هو والبخاري.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٠٠ - ٧٧٤هـ، تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، المجلد الثاني، ص٣٢٢، د. طبعة الشعب مصر.

اعترف العدوي ابن الخطاب الذي أصبح الخليفة الثاني بعد التيمي عتيق بن أبي قحافة وكلاهما من فرع خفيض في قبيلة بني سخينة بأنه أحد الذين عنتهم الآية المعظمة بأنهم يستنبطون الأمور.

ولا غرابة فهو واحد من مجلس الشورى الذي سكر بابه وأحكم رتجانه ووثق مغلاقه، فلا يلجه إلا قرشي ولا يطأ عتبته إلاّ سخيني.

ذكر الألوسي تفسيراً للآية سوف نأتي به مع آخرين في الفقرة القادمة بيد أنه أضاف: «غير أن روايات السلف على خلافه»(١).

وشرح محمود الشرقاوي المحقق ما يقصد الألوسي بعبارته الأخيرة بقوله: يذكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه حين بلغه أن الرسول طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على الرسول فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: لا، فقلت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله.

وعند مسلم، فقلت: أطلقتهن؟ فقال: لا، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية.

---

(١) تفسير الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع، المثاني لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، ١٢١٧-١٢٧٠هـ، تحقيق محمود الشرقاوي، الجزء الخامس ص١٥٥، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، كتاب الشعب الديني، الشعب، القاهرة.

البخاري كتاب النكاح ومسلم كتاب الطلاق[١].

في النص الذي زبرناه عن شهاب الدين الألوسي قرأنا عبارة «غير أن روايات السلف على خلافه» وتوضيحها أو كشف خفائها أن المفسر نسخ قبلها تفسيراً مغايراً لهذه الآية العظيمة في الفقرة القادمة سنميط اللثام عنه تكملة للبحث بيد أنه أضاف أن السلف على خلافه أي لا يمضونه أو لا يقرونه إنما يؤكدون أن الآية المجيدة إنما هلّت كالنجم الثاقب بشأن لوك المسلمين الكلام في نازلة طلاق «صاحب التاج» لأزواجه.

وقد جزم محمود الشرقاوي محقق تفسير روح المعاني به وذكر حديث العدوي ابن الخطاب وأنه متفق عليه.

❖ ❖ ❖

خلاصة هذه الفقرة أن الزوجة الصبية[٢]، الغندورة[٣]، التيمية عائشة تجاوزت مكانتها وخاطبت «القطب» بعبارة لا يليق بأي مقياس توجيهها إليه لا كزوج ولا مبشر بدعوة جديدة ولا مؤسس لدولة بني سخينة، فغضب واعتزل نسوانه فخب التبّاع ووضعوا في الواقعة.

من الطبيعي أن يتضايق من هذا المسلك لا بسبب أن الإيلاء شأن عائلي فحسب إنما لأنه دل على أنهم «الصحاب» ما زالوا في حاجة ماسة إلى المزيد من الصقل والتشذيب والصنفرة والقوطلة والتهيئة خاصة في مربع السياسة.

(١) ذات المصدر السابق.
(٢) تعني الحدثة والحسينة.
(٣) الناضرة أو بينة النضارة.

لأن صحة القائد ومرضه وزواجه وظعنه وعدنه..الخ، كلها أمور من صميم السياسة بل من أخصّها فلا تصح إثارتها بين المواطنين «يطلق أولئك العربان على المواطنين: الرعية التي هي في قواميس اللغة تعني الماشية.اهـ» إذ من الحتم اللازم أن يستفيد منها العدو وهو هنا: صناديد الشرك، أولاد الأفاعي: اليهود، المنافقون (أوضحنا فيما سلف أن النفاق معارضة سياسية أكثر منها خلافاً عقائدياً.اهـ) بالإضافة إلى أعداء الخارج: الروم والفرس.

بيد أنه كالعادة لا يتخلى «القصص/القرآن» عن «قائد الغر المحجلين» فتتهادى الآية ٨٣ النساء كالحيا أو الغيث بالنسبة إلى الأرض الجديبة، وتأمر الصحاب بأن يكفوا عن المشي في هذه المحجة العوجاء بأن يرجعوا في هذه النوازل الحساسة إلى القائد كيما يرشدهم إلى الصواب.

فوائد جمة حققتها الآية المجيدة: رفع الضيق عن صدر «المختار» ودرس بليغ في السياسة للتبع، وبرهنة على ارتباط «المرفوع المطهر: القرآن» بأمور معاشهم ووقائع مجتمعهم ورفع ستار عن حكمة التنجيم أي بزوغ الآيات والسور على دفعات لا مرة واحدة.

هناك سبب آخر لظهور الآية ٨٣ من سورة النساء:

وهو أنِ عدداً قد لا يستهان به من المسلمين أخذ يذيع أخباراً كلما سمع الواحد منهم معلومة حتى ولو انضوت على قدر من الخطورة على أمن الدولة أو مستقبل الديانة أو سلامة القائد فلا

يتورع عن نقلها ربما بحسن نية أو غفلة، أي عدم تنبه أو للإشعار بأهمية القائل وأنه من المقربين للرئاسة ومن العليمين ببواطن الأمور والمطلعين على الأسرار وأنه يوشك أن يغدو من صناع القرار.

لا يهم من يلقى الخبر؟

ومعلوم أن أثرب (يثرب) تموج بأخلاط تنفر من الإسلام وأوشاب تنضوي صدورهم على بغض دفين لـ«صاحب السرايا» وأفناء يكرعون من إناء كراهية دينية وأوباش يرقلون في درب الحقد على دولته التي أسسها في القرية ذات الحرتين.

في مقدمتهم اليهود أولاد الأفاعي الذين ما تصوروا قط لا في منام ولا في يقظة أن عربياً من صلب إسماعيل يبشر بدعوة جديدة.

ويليهم المنافقون الذين ملأ الشنآن صدورهم أن ينجح أحد بني سخينة في تأسيس دولته في بلدهم ويفقد زعيمهم «عبدالله ابن أبي ابن سلول» إلى الأبد فرصته كيما يغدو الحاكم والملك والزعيم.

ويتبعهم صناديد قريش الذين أعماهم الحسد عن معرفة حقيقة الموقف، إنما الذي أفقدهم صوابهم وأعمى بصيرتهم وضيّع رشدهم أن «يتيم أبي طالب» - كما دأبوا على نبذ «سيد الناس» به - يحقق حلم أجداده: قصي/هاشم/شيبة الحمد (عبد المطلب) بل يحالفه الفلج في إقامة حكومة في يثرب والأنكى منه أنها طفقت تقطع على قوافلهم (مصدر رزقهم اليتيم) الطرق.

ومن بعدهم تشرئب الوجوه الكالحة لرؤساء القبائل المحيطة أو المتناثرة في أنحاء الجزيرة الذي وهموا بأن «صاحب اللواء» سيقسم لهم نصيباً، بيد أن الإحباط شملهم واليأس هيمن عليهم والشعور بالضياع ضربهم حتى النخاع عندما تيقنوا أنها لقريش من دون غيرها.

بخلاف جواسيس دولة الروم والفرس الذين ما فتئوا يراقبون بقلق بالغ ما يجري في يثرب إذ حدثتهم عيونهم أنه شيء جديد لا عهد للعربان به من قبل.

هؤلاء جميعاً يتنشقون ولو رائحة ضعيفة لأي خبر ويفتشون عن أوهى بصيص لنبأ صغير ويرهفون آذانهم القبيحة لنأمة مهما بدت كليلة عن حكاية خمصانة ليستشفوا من أحدها حقيقة أحوال الدولة البرعومة وما يدور داخل كواليسها وما يحدث في أروقتها والذي يجري في دهاليزها.

❖ ❖ ❖

هذا المسلك من بعض الصحاب ضايق «الخالص» وتمنى أن يكفوا عن المضي فيه ويعدلوا عن السير في محجته ويمتنعوا عن المشي في طريقه، ولا يتركه «العربي: القرآن» يكابد الألم فتبزغ الآية ٨٣ من سورة النساء مثل الكوكب الدري تعيب على التبيع هذا النهج الأعوج وترشدهم إلى ما يتعين عليهم سلوكه وبذا أسهمت في تربيتهم ورفعت عن «المكي/المكين» ما أصابه من غم.

(قيل عن ضعفة المسلمين إنه إذا «جاءهم» الخبر «بأمر» من الأمور سواء كان ذلك الأمر من باب (الأمن) أو من باب (الخوف)

أذاعوا به وأفشوه.. ولا يخفى ما في الإفشاء من الضرر من جهة أن الإرجاف لا ينفك عن الكذب، ومن جهة أن تلك الزيادات إن كانت من جانب الأمن ولم تقع أورثت شبهة لضعفة المسلمين في صدق رسول الله..)[1].

ويذهب الألوسي إلى المنحى ذاته:

(..وذلك أن ناساً من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال، كانوا إذا أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحي إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه، ولا ضبط لفحواه، على حسب ما كانوا يفهمونه، ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطاً بأمور تفوت بالإذاعة، فلا يظهر أثره المتوقع، فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف)[2].

وقد رأى الألوسي أن هذا التعليل «لا يخلو عن حسن غير أن روايات السلف على خلافه» أي إنه رأى على الرغم من جودته فإن السلف أجمعوا على غيره وهو الذي زبرناه في الفقرة السابقة، أي أن الآية ٨٣ من سورة النساء هلّت بأنوارها الباهرة بسبب إيلاء (أرحم الناس بالعباد) لنسوانه وهو ما حدّث به العدوي عمر بن الخطاب.

❖ ❖ ❖

(١) غرائب القرآن للقمي النيسابوري، الرابع، ص٤٥، مصدر سابق.

(٢) تفسير الألوسي، روح المعاني، الخامس، ص١٥٥، مصدر سابق.

ومن التفاسير الحديثة أو المعاصرة:

اخترنا تفسير عبدالله شحاتة (...أو بعض ضعاف النفوس من شهوتهم الكلام كانوا يروجون أخبار النصر والأمن والخوف وهذه الأمور تسهل للعدو مهمة التجسس ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين)(١).

ثم يختم الدكتور المفسر كلامه بفقرة إنشائية وعبارة بيانية وجملة خطابية (وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة يتضح أن القرآن الكريم قد سبق جميع النظم الحربية في وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن: الحرب النفسية أو حرب الأعصاب وهي التي تدير الحرب العسكرية)(٢).

وعلى الرغم من أن عجز الفقرة: «هي التي تدير الحرب العسكرية» غامض ومبهم ومشوش، إذ كيف تدير الحرب النفسية والحرب العسكرية؟ وأيتهما الأصل الذي يتولى الإدارة والفرع الذي يقبلها؟

فقد تمنيت ألا ينجرف المفسر، وهو أستاذ جامعي أي أكاديمي بدأ بتعلم مناهج البحث إلى الطريقة التعظيمية وينحو منحى السكة التفخيمية ويهرول في محجة التطبيل وآن يترك ذياك جماعه لواعظ في تليفزيون أو مشعبذ يزعم بكل جرأة على الحق أنه يمنح مشاهديه حزمة من نور كأنما لم يكفه ما هو فيه من نور!!

(١) تفسير القرآن الكريم لعبدالله شحاتة، الجزء الخامس، ص٨٨٤، مرجع سابق.

(٢) ذات المرجع والجزء والصفحة.

ومن حقنا أن نسأل شحاتة قبل أن ننتهي إلى نسخ (كتابة) هذه الخطبة المنبرية: هل اطلعت على «جميع النظم الحربية» قبل ظهور «الأحسن/القرآن الكريم» لدى المصريين القدماء والإغريق والحثيين والبابليين والأشوريين والصينيين..الخ، كيما تحكم عليها بالدونيةِ وتقضي عليها بالتخلف وتسمها بالتأخر؟

أو هل قرأت عن بعضها مع أن عبارتك تدل على الاستغراق والعموم والشمول؟

ألا يوجد في قواعد مناهج البحث العلمي ما يقيدك عن إطلاق هذا الحكم الواسع؟

❖ ❖ ❖

هل يوافقنا الدكتور المؤلف أن القرآن العظيم كتاب هداية وإرشاد وأخلاق ومواعظ ورقائق..الخ، ولا شأن له بالحروب العسكرية أو النفسية؟!

وإذا صحّ كلام شحاتة في أن الآية ٨٣ من سورة النساء سبقت جميع النظم الحربية في وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن: (الحرب النفسية أو حرب الأعصاب) فلماذا لم نسبق منذ عهد التدوين إلى إبداع هذا العلم؟ ولماذا انتظرنا حتى توصل إليه الفرنجة الملعونون في كل كتاب؟

إن ما يحدث هو الآتي:

ما إن تظهر نظرية سواء في العلوم الطبيعية/التجريبية أو العلوم الإنسانية ويقرؤها أو يقرأ عنها أحدهم ويمر بنظره الكريم على سور وآيات المصحف الشريف حتى يصيح فجأة وجدتها إن

النظرية المذكورة جاءت في الآية الحميدة رقم كذا في السورة المجيدة رقم كذا ... وبذا يزعم، أننا سبقنا الغرب في اكتشافها!!

طيب يا أخانا - جزاك الله خيراً - ما دام الأمر كذلك فلماذا لم نعلنها منذ أربعة عشر قرناً أو حتى عشرة قرون؟

وبديهي أن الإجابة هي الصمت المطبق.

❖ ❖ ❖

إن الذي لا مرية فيه أن عدة عوامل وراء هذا الموقف الهزلي المأساوي الذي تكرر عشرات المرات والذي ما إن يسمعه الفرنجة حتى يضحكوا ملء أفواههم.

وعلى قُلتها «بضم القاف أي قمتها»: عقدة النقص التي نعانيها بسبب تخلفنا وتقدم الفرنجة ثم يلحق بها وهو الأوعر محاولة التخدير أو التنويم أو التبنيج التي يلجأ إليها الدعاة الأيديولوجيون لتبرير أيديولوجيتهم بين العامة وهم في ذلك ينافسون الأنظمة الحاكمة.

أما ثالثة الأثافي والأدهى: الإيحاء بقوة والإيهام بشدة والتلميح بكثافة أنه لا ضرورة لإعمال العقل ما دام كل اختراع وإبداع ونظرية مبثوثاً في ثنايا «النور: القرآن».

أيها المسلم - الذي ملكت العالم في وقت من الأوقات - لا تعمل عقلك ولا تفتح مخك ولا تشغل فكرك، ولماذا تفعل؟

إن كل علم واكتشاف موجود في «الذكر الحكيم» وما هو مطلوب منك أن تقرأه بإمعان وعندها تخرج منه بما شئت من مخترعات ونظريات في كل المجالات!

أما أن الفرنجة الكفرة هم الذين احتكروا اكتشافها فلا تنس يا أخي أن الله جل جلاله سخرهم لنا، هم يشقون ويتعبون ونحن نأخذها على الجاهز أو اللائح[١].

هذا من أميز أساليب الخطاب الديماغوجي الذي يطرحه على العامة الأيديولوجيون والدعاة المهيجون وهو لا يغدو أن يشكل «حقنة بنج» لتخديرها كيما يسهل عليهم قيادها وتوجيهها حسبما يريدون.

وبداهة أنه (التوجيه) ليس في صالح العامة (القاعدة العريضة) إنما لتحقيق مكاسب سياسية، إذ هم والأنظمة الحاكمة التي تفتقر إلى الشرعية يتنافسون على المراهنة على الدين:

الأولى: للحصول على الشرعية المفقودة.

أما هم (الدعاة الأيديولوجيون والوعاظ المهيجون) فللتعكز عليها (القاعدة العريضة) وبها واستغلالها في إزاحة الأنظمة من سكتها والوثوب على السلطة لصالحهم هم.

وفي كلتا الحالتين فإن صحيح الدين والعامة (القاعدة العريضة) هما الخاسران وللتأكد من مصداقية ذلك عليك بما جرى ويجري وسوف يجري في أفغانستان والسودان.

(١) تعبير صحيح لغوياً، ففي المعجم الوسيط لاح الشيء ظهر وبرز.

هذه النصوص هي آخر ما كتبه الشيخ خليل عبد الكريم قبل وفاته والتي خص بها مجلة «الكشكول» وكانت تنشر تباعاً على صفحاتها.

وحتى يكتمل عقد مؤلفاته، نقوم بنشر هذه الدراسات الإسلامية الجريئة على عادة ما كان يكتبه الشيخ خليل. وهي تكشف ما لم ينشره سابقاً عن الجانب الآخر من قناعاته الدينية وأبحاثه في تاريخ الدعوة الإسلامية.

وتوضيحاً لمن فاته الاطلاع على الأفكار الإصلاحية الإسلامية التي رفع الشيخ خليل عبد الكريم لواءها في مجموعة مؤلفاته التي تتجاوز العشرة، فأننا أرفقنا الدراسات التي نشرت في الكشكول، ملمحة عن أراء ومواقف المؤلف في الواقع المدونة الفكرية التي أرسى مبادئها ومنطلقاتها.

ISBN 9953-476-51-9

9 789953 476506